

سلسلة اعتدال التصوف ②

الآيات المتشابهة

بين التأويل والتفويض والإثبات



محمد عز الدين الغرياني

مُقَدِّمَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه،
ومن والاه، واهتدى بهديه، واهتدى منهجه إلى يوم الدين.

ويعد

1. فإن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، يحنمون على ثوابت في العقيدة
لا يختلفون فيها، ومن هذه الثوابت:
 - الإيمان بكل ما جاء في القرآن والسنة النبوية الصحيحة «والمؤمنون كل آمن
بالله وملائكته وكتبه ورسله لا يفرق بين أحد من رسله»¹ «وما آتاكم الرسول فخذوه
وما نهاكم عنه فانتهوا»² «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول»³.
 - الإيمان في باب الصفات بكل صفة ثبت صراحة وصف الله بها في المصنفين
السادقين.

وعلى هذا المبدأ يتفق جميع المسلمين، واختلافهم حين يختلفون في بعض
الصفات، إنما هو في ثبوت هذه الصفة المعينة وعدم ثبوتها، فمن ثبتت عنده
أمن بها للقاعدة المتفق عليها كل ما وصف الله به نفسه بجنب اعتقاده ومن لم

¹ الفرق: 284

² البقرة: 7

³ النساء: 58

تثبت عدده لم يبح وصف الله بها، ولم يجوز نسبتها إليه، استنادا إلى النص الديني «وذر الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون»¹ وإن من أسباب هذا الاختلاف النص المتشابه الذي يحتمل أكثر من معنى، والذي قد يحمله فريق على معنى لما يبدو له من تضافر النصوص، أو دلالة اللغة والمصباح عليه، ويحمله فريق آخر على معنى آخر يظهر له نفس العسل والأسباب والقواعد.

والمآل في تحليلات العلماء للنصوص المتشابهة على اختلاف مشاربهم، يلاحظ أنهم متفقون في القواعد التي يستندون إليها في التحليل، واختلافهم إنما هو في جانب التطبيق الذي لا يمكن لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعي فيه العصمة، أو يزعم فيه انفاده بالحق والصواب، أو يرمى الفريق الآخر بالبدعة والضلال. كما قال الإمام مالك كل أحد يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب الخبر الشريف.

2. وهذا الكتاب يبرز الجانب التطبيقي والتحليلي لعقائد أهل التصوف في الآيات المتشابهة، والتي وردت في كتبهم، ككتاب حزب التوحيد للإمام الجزولي من أئمة المالكية، وككتاب عقيدة الأكابر للعارف بالله الشيخ عبدالقادر الجيلاني، وكالرسالة القشيرية للإمام القشيري، وكالجام العوام عن علم الكلام للإمام الحجة الغزالي، وكعقيدة الشيخ العلامة الترنير -رضي الله عنهم-، وغيرها من الكتب التي صرحوا فيها بخلاصة دراساتهم لتلك الآيات، والتي قالوا فيها بنفي الحد عن الله والمكان والجهة والصوت والحروف، وأنه في شيء، أو على شيء، أو من شيء، وأنه² تحله الحوادث، أو يحمله على الفعل باعث ودافع

3. ورغبة في بيان عمق دراساتهم، وسعة إطلاعهم، وتمكنهم من أدوات البحث ذكرت فيه عقائد المخالفين لهم في التحليل، وأنتهم التي يستندون إليها.

¹ الأعراف 180

² هذه الجملة وقصة في سباق القري، أي بما أن الله معارف.

وتقويمها في جانب الرواية والدراية، واتفاقها واختلافها مع أنواعه التي
 يأتون بوجوب التمسك بها، حتى يجرح القارئ بغاية بسأل أولئك¹ السادة
 العارفين ما أقاموا بنيانهم، وأسسوا مبانيهم إلا على كتاب الله وسنة رسوله
 صلى الله عليه وسلم- وأنهم كغيرهم من أئمة هذه الأمة لم يألوا جهداً في
 الدراسة والبحث والتتقيب ورصد الظواهر وتمحيص الأفكار والاتجاهات.

فإن وفقت فمن الله، وما توفيتي إلا به عليه نوكلت وإليه أتيب.



¹ الإشارة لعلماء التصوف

تمهيد

القسم العلماء في الآيات المتشابهة إلى ثلاثة مذاهب:

- مذهب بفوضى المعنى إلى الله ولا يتعرض لللفظ المتشابهة لا بتأويل ولا بتفسير.
 - ومذهب يؤول اللفظ المتشابه، أي يصرفه عن المعنى الظاهر المباشر إلى معان أخرى، ويستعين على هذا بالقرائن المتعددة، ويعرف الإستعمال والعادة؛ لأن التحويل في الحكم والاستنباط على قصد المتكلم ومراده.
 - ومراده يظهر أحياناً من اللفظ نفسه، وأحياناً من العلامات والقرائن المصاحبة، فمراد المتكلم من قوله: رأيت أسداً، غير مراده من قوله: رأيت أسداً يخطب على المنبر، ففي الأول يقصد الحيوان المفترس بدلالة لفظ الأسد، وفي الثاني يقصد الرجل الشجاع بدلالة القرينة "يخطب على المنبر".
 - ومن عرف مراد المتكلم بتأويل من الأكلة وجب -عليه- اتباع مراده، والكفاية لم تقصد لذواتها، وإنما هي أداة يستدل بها على مراد المتكلم، فإذا ظهر مراده ووضح بأي طريق عمل بمقتضاه، سواء كان بإشارة، أو كتابة، أو بإيماء، أو دلالة عقلية، أو قرينة حالية، أو عادة مطردة¹.
 - ومذهب يفسر المتشابه بالظاهر الحرفي للفظ، مع الدعوة إلى عدم التمثيل والتشبيه.
- فالتقدم في قوله صلى الله عليه وسلم: ((لا تزال جهنم تقول هل من مزيد، حتى يضع رب العزة فيها نمراً، فنقول قطّ وعزّك، ويضوي بعضها إلى بعض))² يؤمن بها المذهب الأول، لأنها واردة في السنة الصحيحة، من غير

¹ أعلام المومنين، 1، 218.

² التلويح للرجحان فيما اتفق عليه القائلان -البخاري ومسلم- 1810.

أن يخوض فيها بحث أو تفسير أو بيان، ويؤولها المذهب الثاني بما أولها به
أئمة المذهب الصالح:

- قال الحسن البصري: تقدم في الحديث هم الذين قدمهم الله من شرار خلقه
وأثبتهم لها.
- وقال البيهقي عن النضر بن شميل: تقدم هذا الكفار الذين سبق في علم الله أنهم
من أهل النار.
- وقال الأزهري: تقدم الذين تقدم القول بتخليدهم في النار.
- وقال ابن الأعرابي: التقدم المتقدم، وكل قائم عليها يسمى قدماً¹.

واستعان في تحليله هذا بالقرينة الشرعية (الأمل أن جهنم من الجنة والناس
أجمعين)² التي تقيد صراحة بأن الامتلاء لجهنم سيكون بالمطويات لا بغيرها،
ولهذا فيجب تأويل التقدم حتى لا تصطدم النصوص وتتعارض، قال ابن حزم:
إن الاسم إذا تيقنا بدليل نص أو إجماع أو طبيعة، أنه منقول عن موضوعه في
اللغة إلى معنى آخر، وجب الوقوف عنده³.
ويفسرها المذهب الثالث بأن الله قدما على ما يفيد ظاهر الحديث، لكنها ليست
كأدائها للقرينة الشرعية (ليس كمثله شيء)⁴.

ويمكن انتداب الأول على حسب نقل كثير من العلماء عن المذهب الصالح
من الصحابة والتابعين وتابعيهم، ومن سار على نهجهم، قال حنبل: قيل لأبي
عبدالله - يعني الإمام أحمد -: ينزل الله إلى السماء لتفيا؟ قال: نعم. قلت: نروله
بعلمه أم ماذا؟ قال: يسكت عن هذا، وعصبة غضبا شديداً⁵.

¹ دفع منه من شدة وكثرة للإمام في الدين المعصى 12

² السجدة 13

³ الأحكام في أصول الأحكام 531، 4

⁴ ثوري 9

⁵ المواثق الإلهية 478 و 482

وقال الإمام الصنعقي عن قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾¹: إن هذه الآية من استشفه التي يحار في الجواب عنها وعن أمثالها لمن يريد التحرر في العلم، أي يمر بها كما جاءت، ولا يبحث عنها، ولا يتكلم فيها لأنه لا يَأْمَنُ وقوع في الشبهة والورطة إذا لم يكن راسخاً في العلم².

ويمثل المذهب الثاني غالب علماء السنة من الأشعرية والماتريدية.

ويمثل المذهب الثالث طائفة من العلماء على رأسهم ابن تيمية وابن القيم.

وكانت الشهرة لمذهب التأويل مذهب الأشاعرة والماتريدية، الذي دان به علماء الصالحون والصوفية المتقون في مشارق الأرض ومغاربها، والذي عبقته الجامعات الإسلامية العريقة، كالأزهر الشريف والزيتونة، والقرويين، وهي بلاد العراق، وما وراء النهر.

وقد حاصم ابن تيمية وتلميذه ابن القيم مذهب التأويل، وأوليا هذه المخاصمة غاية فائقة، استغرقت شطراً من عمرهما، بذلا فيه أقصى طاقتهما الذهنية وفكرية، واستندا في هذه المخاصمة على:

- أن التأويل يخالف القرآن والسنة والإجماع ومذهب السلف.
- أن التأويل يؤدي إلى التعطيل، أي تعطيل الذات عن الصفات الموصوفة بها، وتعطيل حقائق الألفاظ حين تصرف عن ظواهرها، والتعطيل قادح في عقيدة التوحيد، لأن فيه تحريفا للكلام عن مواضعه.
- أن التأويل يستند على المجاز، والمحاز لا يوجد في اللغة والشريعة، ولم يقل به أحد، لا من أهل اللغة والحديث والتفسير، ولا من أهل اللغة، لا أحمد، ولا مالك، ولا أبو حنيفة، ولا الشافعي، ولا خليل، ولا مسيبويه، ولا عمرو بن العلاء، ولا غيرهم، وإنما هو اصطلاح حادث، جاء من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين³.
- أن التأويل يؤدي إلى القول بالمجاز، والمجاز كذب لصديق نفيه.

¹ طه 4

² لغة الأكر من 17

³ الإلهام 84

- أن التأويل يعتمد على القول بالوضع الأول، ولا يوجد ما يدل على أن في اللغة وضعاً أولاً استعملت فيه الكلمة، ثم نقلت منه إلى معنى آخر على سبيل المجاز، ومن ادعى ذلك فهو مبطل، فإن هذا لم ينقله أحد من الناس¹.
- أن التأويل يعتمد على المجاز، والمجاز تقسم فيه الألفاظ إلى مستعمل فيما وضع له، وإلى مستعمل في غير ما وضع له، وهذا التقسيم فاسد، لأنه يتضمن إثبات الشيء ونفيه، إلى غير هذا من الاعتراضات التي أوردتها ابن تيمية في كتبه، وابن القيم في كتابه 'الصواعق المرسلة'، والتي ناقشها العلماء قديماً وحديثاً، والتي سيأتى الجواب عن أهمها إجمالاً وتفصيلاً.



¹ انظر مجموع الفتاوى 90,7-91

التعويض الإجمالي

١. الصرف عن الظاهر حين توحد القرينة أمر نهيت عليه الشريعة، كما جاء في حديث حاتم -رضي الله عنه- لاذى قال: ((تثبت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فعلمني الإسلام، ونعت لي الصلوات، كيف أصلي كل صلاة نوقتها، ثم قال -أي الرسول -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا جاء رمضان فكل واشرب، حتى يتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أتم الصيام إلى الليل. ولم أدر ما هو، فقلت خيطين من أبيض وأسود، فنظرت فيهما عند الفجر، فرأيتهما سواء. فأتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقلت: يا رسول الله كل شيء أوصيتني به قد حفظت غير الخيط الأبيض والأسود. قال: ((وما منعك يا بن حاتم))، ونهيم، كأنه قد علم ما فعلت. فقلت: خيطين من أبيض وأسود، فنظرت فيهما، فوجدتهما سواء. فصحك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى روي نواجذه، ثم قال: ((لم أقل لك من الفجر إنما هو ضوء النهار وظلمة الليل)).^١

فرسول الله -صلى الله عليه وسلم- استخدم^٢ الخيط الأبيض والأسود في النهار والليل، أي في غير معناهما الحقيقي، وأقام قرينة على استخدامه، وهو قوله ((من الفجر)) واستخدامه هذا يسمى تأويلاً ومجازاً، قال القاضي الباقلاني: هو لفظة معقولة المعنى، لها حقيقة ومجاز، فإن أجريت على حقيقتها كانت ظاهراً، وإذا عدلت إلى جهة المحاز كانت تأويلاً.^٣

وفي أثر عمر بن الخطاب وابن عباس -رضي الله عنهم- الآتي تنبيهه على الاستخدام المحازي، وعلى النقل من المعنى الأصلي للكلمة.

^١ جامع البيان 100/2

^٢ ومن فيه لغز

^٣ البرهان 416-417

حاء في شفاء العليل لاين القيم في تفسير قوله تعالى: ﴿أجعل صدره حرجاً كأنما يصعد في السماء﴾¹: الحرج هو الشدائد الصيق في قول أهل اللغة جميعهم، يقال رجل حرج وحرج أي ضيق الصدر.. قال عبيد بن عمير: قرأ ابن عباس هذه الآية، فقال: هل هنا أحد من بني بكر؟ قال رجل: نعم. قال: ما الحرجة فيكم؟ -أي في ماذا تستعملونها وعلى ماذا تطلقونها- قال: الوادي الكثير الشجر الذي لا طريق فيه. قال ابن عباس: كذلك قلب الكافر.

وقرأ عمر بن الخطاب الآية فقال: ليتوني رجلاً من بني كنانة، واجعلوه راعياً -أي اختاروا من تشتمل بالرعي- فأتوه به، فقال عمر: يا فتى ما الحرجة فيكم؟ قال: الشجرة تحنق بها الأشجار الكثيرة، فلا تصل إليهما راعية ولا وحشية. فقال عمر: كذلك قلب الكافر. لا يصل إليه شيء من الخير².
ففيه هذا الأثر على:

- النقل من الوضع والاستعمال الأول -الوادي أو الشجرة- إلى الاستعمال الثاني وهو قلب الكافر.

- على نوع العلاقة بين الاستعمالين وهي المشابهة

- أهمية رصد معاني الكلمات والبحث عنها في تفهم نصوص التشريعية. وهذا عين ما قام به علماء اللغة والمعالج.

- أن قول من قال إن المجاز لم يقل به السلف، إن أراد عملية وتطبيق المجاز نفسه، فهذا قول منفوخ، وإن أراد مجرد التسمية فمجرد التسمية لا يفيد نفيه في إبطال المحاز نفسه، باعتبارها فناً من فنون القول وأداة من أدوات التعبير.

2. أن ابن تيمية في تحليله لطواهر المتشابهات قد وقع في التأويل الذي ينكره؛ فالقدم في الحديث الشريف السابق ((... حتى يضع رب العزة فيها قدمه)) في أصل اللغة، تطلق على القدم المعروفة والحارحة المعلوم، وتفسره لها بأنها قدم ليست كأقدامنا تأويل؛ لأنه خرج به عن الصورة المعلوم للقدم إلى صورة أخرى غير معروفة، لم يوضع لها لفظ القدم في اللغة، واستعان في تحليله

¹ الأمام 126

² شفاء العليل 203 و 227

بقريئة حتى يصل إلى مراده، وهو قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ ولو كان استخدام القدم حقيقة فيما ذهب إليه لاستعنى عن استخدام القريئة، وهذا ظاهر (لأن الألفاظ إذا لم تكن مشتركة فلا تستعمل في حقائقها مرتين، وإنما تقع حقيقة في موضع استعمالها الأول، فإذا أخرجت عنه كانت مجازاً)¹.

ولفظ القدم لم يكن مشتركاً، لأنه حين يقرأ أو يسمع يسبق إلى الفهم صسورة القدم المعروفة دون غيرها من الصور المجهولة، والألفاظ المشتركة عند أهلها لا يسبق فيها إلى الفهم بعض دون بعض.

3. أن التأويل لا يؤدي إلى التعطيل، فالقدم في الحديث الشريف حين نزول على غير حقيقتها لوجود القريئة الشرعية، لا يؤدي هذا التأويل إلى التعطيل لا للذات ولا للألفاظ؛ لأنه ليست هناك صفة أصلاً تسمى القدم لعدم ما يدل عليها -كما سبق بيانه- فلا يكون تأويلنا للقدم نفيًا لها، ولم تكن القدم في الحديث تدل على القدم حقيقة، حتى يصح أن نقول إن تأويلنا فيه تعطيل لحقائق الألفاظ.

4. أن السلف الصالح الذي يستند إليه وبحج به ابن تيمية في التأويل والتفسير، هو الذي نبه على التوضيح الأول وأصل الكلمة:

- قال ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿أو تحرير رقية مؤمنة﴾: يعنى -تعالى ذكره- بذلك أو فك عبد من أسر العبودية ونلها، وأصل التحرير الفك من الأسر، ومنه قول الفرزدق:

أبى عدانة إني حررتكم فومئذكم لمعلبة بن جعال

يعنى بقوله "حررتكم" فككت رقابكم من ذل الهناء ولزومه².

- وقال في قوله تعالى: ﴿أهدنا الصراط المستقيم﴾³. اجتمعت الأمة من أهل للتأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم، هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج

¹ المجاز في اللغة وهران الكبرى 693,2

² جامع البيان 18,7

³ سورة 5

فيه، وذلك في لغة جميع العرب ... ثم يسعير العرب الصراط فاستعمله في كل قول وعمل يوصف باستقامة وأعوجاج¹.

فابن جرير هنا ((قد حكى إجماع الأمة من أهل التأويل على أن المراد بالصراط وصفا هو الطريق المستقيم الذي لا أعوجاج فيه، فيكون استعماله في غيره مستلما في الآية للحكمة - خروجاً به إلى غير معناه هو المحاذ))²

وقال في قوله تعالى: «في قلوبهم مرض»³: وأصل المرض السقم، ثم يقال ذلك في الأحساد والأديان⁴. والمراد من الأصل هو أصل الوضع.

وابن تيمية يقول عن تفسير ابن جرير: فتفسير التي في أيدي الناس أصحها تفسير ابن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين⁵.

وهذه التركيبة تفيد صحة قول ابن جرير بأصل الوضع اللعوي، وصحة قوله بالإجماع عليه. وقول ابن تيمية السابق يفيد أن من يقول بالوضع الأول يعتبر من المبطلين⁶، فأي وصحين سنصف بهما الإمام ابن جرير، هل هو يرى من البدع والضلال كما هو ظاهر النص الأول، أو هو في قائمة المبطلين كما حكم به النص الثاني؟

قال أبو عبيدة (توفي سنة 209) في قول جرير:

لا قوم أكرم من تميم إذ غدت عود النساء بستن كالآجال

قال: قوله (عود النساء) هن الثلاثي معهن أولادهن، والأوصل عود الإبل التي معها أولادها، فبقلة العرب إلى النساء، وهذا من المستعار، وقد تفصل ذلك العرب كثيراً⁷.

¹ المرجع السابق 57,1-58

² المجاز 456,1

³ انفرد 9

⁴ جامع البیلى 94,1

⁵ مجموع الفتاوى 192,2

⁶ المرجع السابق 90,7 91

⁷ الفرائد 121,1 نقلاً عن كتاب المحار المصطفى

- قال أبو عمرو بن العلاء في قول ذي الرمة:
أقامت به حتى ذوى العود وساق النريا في ملاءته الفجر

قال:

الآ ترى كيف صير له -أي للعجر- ملاءة، ولا ملاءة له، وإنما استعار له هذه اللفظة¹.

- قال ابن قتيبة [213-276]: العرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى أو مجاورا لها.. فيقولون للنبات نوء، لأنه يكون من النوء عندهم. قال رؤبة بن المعراج:

وجف أنواء السماء المرتقى

أي جف الثقل. ويقولون للمطر سماء، لأنه من السماء يبرل².

- قال الخطابي في شرحه الحديث: ((فإذا سكب المؤذن بالأولى من صلاة الفجر قام فركع ركعتين خفيفتين)) قال: قال سويد: سكب يريد أذن، السكب الصب والدق، وأصله في الماء يصب، وقد يستعير، فيستعمل في القول والكلام، كقول القائل: أفرع من أذنى كلام لم أسمع مثله³.

وهذا يدل على أن اللفظ المتحدث عنه له دالتان، أحدهما أصلية، وهي دلالة الوضع الأول، والثانية فرع وهي دلالة المجاز.

- قال المبرد [توفي سنة 285] في تحليل قول ميادة:

أمرتك يا رياح بأمر حزم فقلت هشيمة من أهل نجد

قال: تأويله صعبه، وأصل الهشيم الثبت إذا جف وتكسر، فزركه الرياح يميناً وشمالاً⁴.

- قال الإمام أبو حنيفة: إن المجاز خلف الحقيقة في التكلم⁵.

¹ المدة لابن وشيق 269.1

² تأويل المشكل 135

³ معاني القرآن 363.2

⁴ التكميل 45.4

⁵ كشف الأسرار عن أصول فقه الإسلام للبردوي 80 77.2

- قال الشافعي: فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها، وكان مما تعرف من معانيها فصاح لسانها¹، وإن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاماً يراد به العام الظاهر.. وعاماً يراد به العام ويدخله الخاص، وظاهراً يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره².
- والجملة الأخيرة من قول الإمام الشافعي تعتبر قاعدة كلية للمجاز، ومعناها أنه يدرك من خلال السياق القرينة الصارفة عن إرادة المعنى اللغوي الأصلي.
- قال الشافعي: إن المطلق يقع بلفظ التحرير مجزاً، والعناق يقع بلفظ المطلق مجزاً.
- قال فخر الإسلام البزدي: لم يمنع أحد من أئمة السلف من استعمال المجاز³.
- قال ابن عطية -توفي سنة 310 هـ- في قوله تعالى: ﴿أهدنا الصراط المستقيم﴾ الصراط في اللغة الطريق الواحد...
- وإختلف المفسرون في المعنى الذي استعير -أي نقل إليه- الصراط في هذا الموضع وما المراد منه⁴.
- فيولاء أئمة السلف يقولون بخلاف ما يقوله ابن تيمية: فهم يقولون بالوضع الأول، وينقل منه على سبيل الاستعارة والمجاز، وهو يقول إن هذا لم ينقله أحد، ومن يقول هذا مبطل، وعلى قوله فالسلف من المبطلين.
- 5 المجاز ليس كذا لـ:
- أن المتجاوز ينصب بين يدي القارئ قرينة تصرف عن إرادة المعنى الوضعي، أما الكذب فإن الكاذب يحرص على إخفاء حاله وترويح كذبه.

¹ التوسع من باب المجاز قال ابن الأثير: المجاز لا يخرج عن هذه الأقسام الثلاثة إما توسع أو تشبيه أو استعارة المثل السابق 82،2-83 وقال ابن جني: لا يدخل من الحقيقة إلى المجاز إلا ثلثون ثلاثة وهي الاتصاف والتشبيه والتوكيد المرجع السابق 84،35

² الرسالة 53

³ كتب الأسرار 77،2-80

⁴ المحرر الوجيز 122،1

- أنه إنما يكون كذباً لو أثبت فيه المعنى على التحقيق لا على المجاز، فيكون إطلاق الأمد على الرجل الشجاع كذباً لو ادعى أنه حيوان مفترس، وليس هذا المقصود من الإطلاق، وإنما القصد تشبيهه به في الشجاعة والجرأة.

اعتراضات ابن القيم

اعترض ابن القيم في كتابه "الصواعق المرسلة" على استخدام المجاز بأكثر من خمسين اعتراضاً، وقد تعرض العلماء قديماً وحديثاً لمناقشة هذه الاعتراضات ونقدها، ومن أشهر هؤلاء العلماء العلامة للدكتور عبدالمطيم الملعنى في كتابه القيم "المجاز في اللغة والقرآن الكريم" الذي بلغ أكثر من ألف ومائة صفحة في جزئين كبيرين، أثبت فيه استخدام السلف للمجاز وتأويلهم للنصوص. وناقش فيه ابن تيمية وابن القيم بإسهاب كبير، أبطل فيه كل الحجج الواردة في كتبهما، والرجل ليس من أعداء ابن تيمية وابن القيم حتى يستهم بالتعصب، وإنما هو من المعجبين بهما، اللامجين بالثناء عليهما.

وينبغي لكل من قرأ لابن تيمية وابن القيم الاطلاع على هذا الكتاب، حتى يكون على بصيرة وبينة من أمره ((انظروا عن تأخذون دينكم))

والمسألة حلل، فالأخذ بالظاهر غير الأخذ بالتأويل في النتائج والآثار، فالأخذ بالظاهر يترتب عليه القول بقدوم العالم، وفناء النار يوم القيامة، وتليس الأنبياء -عليهم السلام- بالمعاصي والأثام، وتحيز الله في المكان والجهة، والقول بالأجزاء له والأبعاد من اليد والقدم والوجه، والقول بضلالة الأمة المؤولة... إلى غير هذا من العقائد التي التزم بها ابن تيمية واعتنقها، ودعا أتباعه إلى الإيمان بها.

- وسأورد هنا عشرة اعتراضات لابن القيم على المجاز، وسأنتقل إجابة العلامة للمحقق الملعنى عليها بما يخدم موضوع هذا الكتاب.

قال ابن القيم ما يرفع المجاز بالكلية أنهم قالوا: إن من علامة الحقيقة السبق إلى الفهم، وشرطوا في كونها حقيقة الاستعمال، وعند الاستعمال لا يسبق إلى الفهم غير المعنى الذي استعمل اللفظ فيه، فيجب أن يكون حقيقة، فلا يسبق إلى فهم أحد من قول النبي -صلى الله عليه وسلم- هي الفرس الذي ركبه: ((إنما وجدناه بحرا)) الماء للكثير المستبحر، فإن في ((وجدناه)) ضميرا يعود على الفرس، يمنع أن يراد به الماء الكثير، ولا يسبق إلى فهم أحد من قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن خالدًا سيف سله الله على المشركين)) أن خالدًا حديد طويلة لها شفرتان، بل السابق إلى الألفهام من هذا التركيب نظير السابق من قولهم: يا رسول الله، إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء¹...

جواب المطعني

العلامة قد جانبته الصواب هنا بشكل واضح، فإما أن يكون قد فهم كلام المجازيين وتجاهله، أو لم يفهمه، فمراد المجازيين من ((التبائر)) إنما هو عند خلو الكلام من قرينة التجوز، أما عند وجود القرينة فالمتبائر هو المعنى المجازي وليس الحقيقي، والعلامة لم يلاحظ هذا كما هو مقتضى كلامه. ومن الأخطاء التي وقع فيها عدة الحنثيين المنكوريين من باب المجاز، ولا محاز فيهما، فحديث الفرس تشبيه، والتشبيه حقيقة، وحديث خالد تشبيه كذلك، لأنهما لو كانا استعارتين، والاستعارة -على الصحيح- لا يجمع فيها بين المثبه والمثبه به، وهما هنا الفرس والبحر. وكذا والسيف، وبهذا ينهار من الأساس ما توهم في عد هذا مجازاً، وليس هو بمجاز. وقد ناقشنا مع ابن جني من قبل².

¹ الصواعق 321

² الميزان 945,2

يُمْتَنِع دخول المحاز في كلام الله، لأن الله لم يصنع ألفاظ كلامه لمعان، ثم يعطها إلى غيرها، ولا كان كلامه تابعا لأوضاع المخلوقين¹.

جواب المطعني

هاتان مغالطتان مفضوحتان كان حريا بالعلامة ابن القيم، وهو العالم الفد، والفتية الجيهذ، والمجادل الذكي أن يقع فيهما، فمن ذا الذي يقول إن كلام الله في التوراة والإنجيل والقرآن وضع الله ألفاظه؟² والله يقرر في كتابه الحكيم الذي كان يحفظه العلامة ويفسره قاتونا مطردا، لم يتخلف في إرسال الرسل وإزال كلامه عليهم «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم»

هذه الآية الحكيمة تعطل دعوى العلامة بشقيها:

- كون الله سبحانه - وضع ألفاظ كلامه وضعها خاصا.

- نفي أن يكون كلام الله تابعا لأوضاع المخلوقين.

لأن كلام الله الموحى إلى كل أمة نزل بالفاظها تابعا لأوضاعها؛ لأن المقصود من الرسالة البيان، ولو بعث رسول في أمة بوحى مخالف للغة الأمة ولأوضاعها لما كان بيانا وهدى³.

الاعتراض الثالث

إن اللفظ عند تجرده عن جميع القرائن يصح محرد صوت غير مفيد، مثل: طق، وغاق، فكيف يترتب على التجرد محاز؟ فإن ادعى محوزوا المحاز أنه ما احتاج إلى قرينة في المفرد لإفادة المعنى كانت اللغات كلها مجازا!! وإن

¹ الصواعق 316

² بقصد من أدى ينزل في الله قد امتنع، الألفاظ التي يصح بها القرآن وغيره.

³ المحرر 937

فرقوا بين قرينة وقرينة كان ذلك تحكما محضاً. كأن يفرقوا بين القرائن اللفظية والقرائن المعنوية¹.

جواب المطعني

أطال² المؤلف في هذا الوجه، وسواء علينا أطلال أم أجز، لأن صواب هذه المسألة قائم على اصطلاح خاص، فليس المراد عند مجوزي المجاز من التجرد والاملاق التجرد العام من كل القرائن، بل المراد خلو الكلام من القرائن المنسوبة لتحقيق المجاز، فقولنا "رأيت أسداً يخطب في الجند" صار مقيداً بقرينة تصرف عن معنى "الأمسية للحيوانية" إلى معنى الشجاعة والإقدام. وسواء عند مجوزي المجاز أن تكون القرينة المحققة للمجاز عقلية أو لفظية، ولكن ليس كل قرينة لفظية كانت أو عقلية محققة للمجاز، فالمفعول في "أكلت دماً" قرينة لفظية محققة للمجاز، لأن الدم لا يؤكل، وبخاصة دم الأنمي المقصود هنا، والمفعول في قولنا "قرأت كتاباً" قرينة لفظية، ولكنها لا تحقق المجاز، والاضافة في "مكر اللؤلؤ" قرينة لفظية محققة للمجاز³، أما الاضافة في قولنا "مكر الانسان" فقرينة لفظية، ولكنها لا يترتب عليها مجاز. والعقلية مثل اللفظية تحقق المجاز حيناً، ولا تحققه حيناً آخر، فقول الشاعر:

وما الدهر إلا من رواة قصاندي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

فيه قرائن عقلية محققة للمجاز لأن الدهر - وهو الزمن - لا يروى ولا ينشد، وإنما يروى وينشد أهله.

ومثله عبارة سيبويه المذكورة في أول الكتاب "حملت الجبل" وشربت ماء البحر" فالدعوى يمنع أن يحمل إنسان جبلاً، وأن يشرب ماء بحر فلا يسخر منه شيئاً، وإذا قال إنسان: الولد لكبر من أبيه سناً، حكم العقل بفساد هذا الكلام، ولا يترتب على القرينة العقلية هذا مجاز.

¹ انظر الموايق 299

² هذا القسم ملخص لكلام ابن القيم

³ لأن اللؤلؤ لا يسخر

وإنما حاسب المؤلف المصواب -هذا- لأنه أراد أن يحاكم مجوزي المحار على أساس قوانين كلية، لا على أساس مصطلحات العلوم والفنون الخاصة بكل علم وفن.

الاعتراض الرابع

تقسيم الألفاظ إلى مستعمل فيما وضع له، وإلى مستعمل في غير ما وضع له تقسيم فاسد، لأنه يتضمن إثبات الشيء ونفيه¹.

جواب المظني

يريد المؤلف أن يقول: إن استعمال اللفظ في غير ما وضع له معناه نفي الوضع، وإن استعماله في المجاز معناه إثبات الوضع، وهذا -عنده- جمع بين التقيض²! وهذه مغالطة كبرى من المؤلف، فاستعمال اللفظ في المجاز لا ينفي الوضع الأول، لأن المجاز إجماعاً ملاحظ فيه المعنى الوصفي، فالقرآن الحكيم حين أطلق على الجهل لفظ الموت لم يُلغ الدلالة الحقيقية لكلمة الموت، بل استثمرها في المعنى المجازي.

فسمى الجاهل "ميثاً" لأن الميت عديم النفع، وكذلك الجاهل، والعلامة نفسه حين سمي كتابه "الصواعق" لم يُلغ المعنى الحقيقي لهذه الكلمة الذي هو الإحراق والإهلاك، بل شبه كتابه في القضاء على خصومه بالصواعق في قوة التأثير، وهكذا كل مجاز، فلبن البناء الوضع يا ترى³؟

الاعتراض الخامس

التسليم بصحة المعنى المجازي لا يصح إلا بعد تمييز المعنى الحقيقي بمميز منفصل، لأن صحة التمييز بين الألفاظ تابع لصحة التمييز بين المعاني، فإذا لم يصح التمييز كان التقسيم تحكما محضاً⁴.

¹ الصواعق 201

² المجاز 918,2

³ الصواعق 292

هذه القاعدة التي ذكرها المؤلف صحيحة، ولكن لا أثر لها فيما نحن بصددده؛ لأن التمييز بين المعنى الحقيقي حاصل حصولاً بيناً، ولناخذ بعض الأمثلة التي تقدمت، فقد قلنا انما إن القرآن الكريم أطلق لفظ الميت على الجاهل محلاً، والمعنى الحقيقي متميز كل التمييز عن هذا المعنى المجازي، فالميت الذي فارقت روحه بدنه إن كان مسلماً غسل وكفن، وصلى عليه، ثم دفن، ويورث إن كان له مال ووراث، وتحل كل ديونه بالموت، وسقط عنه التكليف. أما الميت الجاهل فلا تجرى عليه تلك الأحكام التي تقدمت، فهل بعد التمييز من تمييز؟!¹

الاعتراض السادس

هل المحاز مخصوص عندكم بلغة العرب أم عام في كل اللغات؛ ويرتب على هذا محصورين، فإن قال مجوزوا المجاز إنه خاص بلغة العرب، قال لهم هذا تحكم فاسد، وإن قالوا عام في كل اللغات قال لهم: هذا أمر ينكره أهل كل لغة، بل يجزمون بأن لغتهم باقية على موضوعاتها لم تخرج عنها.²

جواب المطعني

هذا إفلاس في محاوراة الخصوم، وخروج بموضوع النزاع إلى غير حاجته، لأن مفكري كل أمة يولون عنايتهم بلغة أمتهم، وهل سأل هو كل الأمم عن المحاز والنقل فأجابوه بما ادعاه؛ وهل كان يعرف أن هذه الدعوى باطلة، وإن المجاز موجود في كل اللغات، وإن أرسطو قبل الميلاد بأكثر من أربعة قرون كان قد تكلم على المحاز والنقل والاستعارة والتشبيه والفرق بين الاستعارة والتشبيه³، وأوروبا في نهستها الأدبية واللغوية الحديثة اعتمدت على أدب

¹ المجاز 202.

² الصواعق 315.

³ نظير أرسطو من أشهر 457.

اليونان القدماء، وحنث حضوهم ردهامن الزمن، وآداب الأمم حافلة بـصور
رائعة من المجاز لا ينكرها إلا معاند: هنودا وفرسا ورومانا وغيرهم
وغيرهم ...

أجل: إن المجاز علم في كل لغة، وإن اختلفت العربية بكثرة البحث فيه حتى
اشتهر فيها وذاع أثره¹ ²

الاعتراض المبالغ

يعجز البيانيون عن توضيح الفرق بين قرائن المجاز وقرائن غير المجاز³.

جواب المطعني

من أيسر المسور عند المجازيين التفرقة بين القرائن التي يكون معها الكلام
مجازاً، وبين القرائن التي يكون معها الكلام حقيقة، لفظيات كانت أو معنويات،
ومقتاً على ذلك عدة أمثلة فيما تقدم⁴، ونضيف هنا: لو كان مسائل قد سأل
العلامة وهو في مجلس فنه فقال: ما حكم رجل خرق بطن حاصل⁵ فماتت،
ومات ما في بطنها؟ فإن جوابه، وهو الفقيه العظم، لا بد أن يكون: يقتل الرجل
قصاصاً إن كان متعمداً، وعليه دية الأم وجنيتها إن كان محطئاً. وإن سأل
آخر فقال: ما حكم رجل خرق بطن الوادي⁶، وسار فيه بفرس رائحاً جائيساً؟
أ يكون جوابه مثل الأول فيرى في هذا جريمة كما رأى في الأول؛ ألم أن هذا
عمل مباح وإن كان فيه خرق بطن⁷.

¹ انظر اللغة الشاعرة لأستاذ العقاد 35

² للمجاز 936,2

³ الصراع 328

⁴ انظر جواب الاعتراض الثالث

⁵ الإحطلة ما حطلة

⁶ الإحطلة هنا غير حقيقية بل مجازية

⁷ المجاز 941,2

[يعني أن اختلاف جوابه يعني إدراكه للفرق بين القرأتين التي يكون معها الكلام مجازاً، والقرأتين التي يكون معها الكلام حقيقة]

الاعتراض الثامن

ينازع ابن القيم في أمارة المجاز المعبر عنها بأن اللفظ عند الإطلاق يكون المعنى المتبادر منه إلى الفهم هو الحقيقة، وما عداه -عند التقييد- هو المجاز، وأن القائلين بالمجاز ليسوا ممن يحتج بعريبتهم¹ .

جواب المظني

دعوى أن أكثر القائلين بالمجاز ليسوا عرباً، ولا يحتج بعريبتهم دعوى باطلة بشقيها، فسيبويه وإن لم يكن من أصل عربي هو إمام النحاة واللغويين بلا نزاع، وقد أدرك الاستعمال المجازي من وقت مبكر، ومسماه الاتساع في الكلام، وحذا حذوه الفراء وأبو عبيدة وابن قتيبة، وأبو عمرو بن العلاء، وابن الأعرابي، ومؤرج السدوسي الذي كان يحفظ كما قيل ثلث ألفة، ثم حذا الجاحظ حذوهم وأضاف، وكذلك المبرد وغيرهما كثير، بل إن التصريح بالمجاز بلفظه ومعناه محرز إلى الإمام الشافعي والإمام أبي حنيفة وصاحبيه، وتقدم هذا في حديثنا مع ابن تيمية مع توثيق النقل عنهم، فتراخى من يريد .

أما تندر المعنى الحقيقي فيكفي فيه قصة القوم الذين فهموا من قوله تعالى: «أحتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود»، أن المراد من الخيطين هنا الحبلان الأبيض والأسود، إلى أن نزل قوله تعالى: «من الفجر»، فكانت نصاً في فهم المراد .

وهذه العبارة مطردة، لذلك احتج في المجاز إلى القرأتين الصارفة عن المعنى الحقيقي المتبادر، وهذا هو الحق².

¹ نفس المصدر في الوجه الثاني والأربعون

² المجلد 993، 2

لو صح تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز لكان ذلك إما باعتبار لفظه فقط، أو باعتبار معناه فقط، أو باعتبارهما معاً. ولكن بطلان التقسيم باطل¹.

جواب المطعني

التلازم بين الألفاظ والمعاني كالقلازم بين الروح والحياة، واللفظ حين ينظر إليه بمنأى عن وجوده في جملة ذات معنى تام لا يفيد إلا التصور، وتعتل المعنى بلا واسطة لفظ بذل عليه يكاد يكون مستحيلاً، فالألفاظ أوعية المعاني كما قالوا، وعلى هذا فإن تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز منظور فيه إلى الألفاظ والمعاني معاً، فمثلاً قوله - صلى الله عليه وسلم - في النساء: ((رفقنا بالفوارير)) فإن لفظ الفوارير هنا بحسب معناه مجازي، والمعنى بحسب دلالة اللفظ عليه في هذا الموضع مجازي أيضاً، فتقسيم الكلام إلى حقائق ومجازات مراعي فيه الألفاظ ومعانيها، وهذا لا ينكره منصف، ويزداد الأمر وضوحاً حين نقارن بين قوله تعالى: «وبطاف عليهم بأنية من فضة وأكواب كانت قوارير قواربراً من فضة قدروها تقديراً»².

إن دلالة (القوارير) في الآيتين تختلف اختلافاً بيناً عن دلالة القوارير في الحديث، فالذال والمنلول في الحديث مجازي باعتبار، والذال والمنلول في الآيتين حقيقة باعتبار، فآية عرافة في صحة هذا التقسيم إلا العرافة التي تنشأ عن التعصب وحده، إن التعصب كثير ما يلبس الأشياء غير أنوارها³.

الاعتراض العاشر

بأخذ على المجازيين مأخذين كلاهما لا حجة له فيه، لأنهم راهم يمارسون المجاز على أسلين كما يقول: ثرة بالحمل والأخبار، فيقولون أراد المتكلم من

¹ سطر الصواعق 335

² الإنشائي 15-16

³ شجرة 948,2

كلامه هذا التحوز بكذا عن كذا، وتارة يستعملون هم المحازفي خطبهم وكلامهم، ويقولون استعرفنا كذا لكذا، ويرد عليهم أصلهم الأول، فيقول: من أين لكم إن المتكلم لم يرد بكلامه معناه المفهوم منه عند الخطاب، يعني الحقيقي¹

جواب المطعني

من المعلوم أن المتكلم بالمجاز ينصب قرينة تكل على مراده منه، وأحياناً تكون القرينة مفررة بطبيعتها، مثل قول ابن الرومي في وصف الطبيعة في الربيع:

تبرجت بعد حياء وخمر تبرج الأثني تصدت للذكر

فوصف الطبيعة بالتبرج مجاز، والقرينة هو الحديث عما لا يعقل، وأراد التبرج إنما هو فعل العقلاء، فإذا قال ناقد إن هذه صورة مجازية وردت في شعر ابن الرومي لم يكن منقولاً عليه، لأن من المحال أن يكون الشاعر قد أراد من التبرج هنا نفس المعنى المبهى عنه في القرآن الكريم في قوله تعالى: «ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى»²

وكذلك محال أن يكون مراد النبي -صلى الله عليه وسلم- من (الفوارير) في الحديث المتقدم³ معنى الفوارير في الآية (كانت قواريرا) وإذا كان من حق الناقد أو الشارح أن يفسر كلام غيره على هذا المبهج، فهو بتفسير كلام نفسه أحق⁴.

ملاحظة

مع شدة معارضة ابن القيم للمجاز والتأويل في كتابه "المصواعق" و "المنونية" فهو متوسع فيهما في كتب أخرى متعددة كشفاء العليل، وبدائع القوائد، والتبيان . . ودلالات هذا التعارض والتناقض سيأتي التعرض لها في التفويم التفصيلي عند منبحث الصوت.

¹ المصواعق 338

² الأحزاب 36

³ راجعاً بالفوارير

⁴ المجاز

التَّقْوِيمُ التَّفْصِيلِيُّ

مبحث الصوت

عقيدة ابن تيمية

— يعتقد ابن تيمية أن الله حين يتكلم بتكلم بصوت وحرف. يقول في كتابه مجموعة الرسائل: الله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه بصوت نفسه... كما ثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف¹. وما تكلم الله به فهو قائم به².

قال الله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾³ فهذه الآية تدل على أنه يتكلم بحرف وألفاظ وصوت؛ لأنه لا يصح في العقل نداء لئس مسموعاً لنا، ولا يسمع إلا الصوت⁴. يقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يقول الله: يا آدم، فبقول لبيك وسعديك، فينادي بصوت: إني الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار))⁵.

وعن جابر بن عبد الله بن أنيس قال: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((يحشر الله العباد، فيناديهم بصوت، يسمعه من بعده كما يسمعه من قريب: أنا الملك، أنا الدين))⁶.

ويقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إذا تكلم الله بالوحي، سمع أهل السماء كجر السنينة على الصفا))⁷.

¹ 153,3

² مجموعة الرسائل 45,3

³ مريم 51

⁴ مجموع الفتاوى 531,6-532

⁵ الشفاري - السدي - 180,4 في باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا ثِقَالَكُمْ حَبْوَ إِلَّا بِأَنفُسِكُمْ﴾

⁶ البخاري - المصنف - 234,17

⁷ مجموع الفتاوى 234,6

وهير يتكلم الله يتكلم بصوت يشبه صوت الصواعق، لما جاء في الحديث: ((لما رجع موسى إلى قومه، قالوا له: صف لنا كلام ربك، فقال: سبحانه الله! وهل أستطيع أن أصفه لكم؟ قالوا: فصفه.

قال: سمعتم أصوات الصواعق التي تقبل في أحلى حلاوة سمعتموها؟ فكانه مثله¹)).

وأن كلامه حادث فردا قديم نوعا، يقول في كتابه رسالة في صفة الكلام ص 51: إنه ينادى ويتكلم بصوت، ولا يلزم من ذلك قدم صوت معين، وإذا كان قد تكلم بالتوراة والقرآن والإنجيل بمشيئته وقدرته، لم يمنع أن يتكلم بالباء قبل السين، وإن كان نوع الباء والسين قديما، لم يستلزم أن تكون الباء المعينة والسين المعينة قديما، لما علم من الفرق بين النوع والعين.

يعنى أن اللفظ صادر منه تعالى بالحرف والصوت ليكون حادثا، لأن لكل حرف بدءا ونهاية، وأولاً وآخر، وكل حرف مسبوق بما قبله، والمسبوق بخيره حادث؛ لأنه لم يكن موجودا قبل التلفظ به.

لكن ما من لفظ إلا وقبله لفظ صدر منه، وما من حرف إلا وحرف سابق عليه إلى ما لا أول له، فيكون حادثا بالفرد، قديما بالنوع. قال الإمام أحمد بن حنبل: لم يزل الله متكلماً².

وهذا يدل - عند ابن تيمية - على قيام الحوادث بانف، لأن الله حين يقول للشيء المعنوم ((كن)) يتكلم بحرف ونون بعد أن كان صامتا، وحين ينادى عباده يستلفظ بـ ((ماذا أجبت المرسلين))².

وحين أوحى بكتابه لجبريل - عليه السلام - سمعه جبريل يستلفظ بكلماته مرتبة الواحدة بعد الأخرى، وترتيبها لا يدل على حدوثها؛ لأن كلام الله قديم، يتكلم به في وقت معين بعد أن لم يكن متكلماً.

¹ مجموع الفتاوى 154,6

² أنظر شرح العقيدة الأمطهية لآل تيمية 69-70، مجموع الفتاوى 224,6

يقول ابن تيمية:

فإن قلتم لنا: فقد قلتم بقيام الحوادث بالرب، قلنا لكم: نعم، وهذا قولنا الذي دل عليه الشرع والعقل¹، وأمن به السلف وأئمة الحديث²، لأن الكلام صفة كمال لا صفة نفس، ومن تكلم بمشينة أكمل ممن لا يتكلم بمشينة، فكيف يتصف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق³.

التقويم

سأعرض هذه الفتاوى والأحكام من ناحيتين:

1. من حيث التحليل.

2. من حيث النص.

من حيث التحليل

1. يعتبر تحليله غير مسلم، لأنه لا وجود للنوع إلا في ضمن أفراد، فإذا كانت الأفراد حادثه كان النوع حادثاً؛ لأنه حين يكون كل فرد مسبوقاً بالعدم يكون الكل كذلك، فلا وجود للكلّي إلا في ضمن حزنيته.

والجملة ليست شيئاً أكثر من الأفراد مجتمعة، فإذا كان كل فرد حادثاً نزم من ذلك حدوث الجملة قطعاً، فكل ما يعتبر وصفاً للأفراد جميعاً يعتبر وصفاً للكلّي، فإذا كان كل زنجي أسود كان الكل أسود ضرورياً، وإذا كان كل طالب ناجحاً، كان الجميع ناجحين بلا ريب، كذلك الأمر في الحروف والألفاظ، فإذا كان كل حرف

¹ منهاج السنة 224، 1

² مجموع الفتاوى 324، 6

³ شرح السابق والحرف، الطبعة مجموعة رسائل 44، 3 45

ولفظ صادر من الله حادثاً، كان كلامه كله حادثاً فرداً و نوعاً، مما يدل على أن هذا الكلام الملقوط ليس صفة ذاتية؛ لأن صفاته الذاتية أزلية قديمة لا بداية لها. قال الله تعالى: «كتاب أنزلناه إليك مبارك»¹: فكلمة «أنزلناه» عبرت عن حدوث اللفاظ مرتين: مرة بتركيبها، ومرة بمادتها.

وأصل العبارة: أنزل الله القرآن، فالفاعل، والقرآن مفعول، والفاعل غير المفعول، فزيد غير عمرو ذاتاً وصفاتاً في قولك: ضرب زيد عمرواً، فالقرآن غير الله² في قولك: أنزل الله القرآن.

ومعلوم أن الله وحده منفرد بصفة القدم، لا يشاركه غيره فيه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((كان الله ولم يكن شيء غيره))³

ومادة ((أنزل)) تدل على الحدث أيضاً؛ لأنه لو كانت هذه العبارات والحمل والحروف هي الصفة القديمة لما وصفت بالإنزال، كما أن صفة القدرة لا توصف بالإنزال، والصفات لا تفارق الموصوف، ولا تقوم بنفسها⁴.

ووزن ((مبارك)) سفتح قراء- في الآية يعبر عن أن الله موقع البركة، والقرآن محلها، ويدل على أن القرآن غير الله، وغير الله حادث.

فإن قلت: قد اتفق السلف على أن كلام الله قديم، فكيف تقول الأشاعرة بحدوثه؟
فالجواب: أن كلام الله يطلق على شيئين:

— الأول على الصفة النفسية الذاتية التي ليست بحرف ولا صوت.

— والثاني على هذه الألفاظ المكتوبة المعقمة.

وهذه الألفاظ -كما تقدم- لها بدء ونهاية، وأول وآخر، وكل لفظ مسبوq بما قبله، وللمسبوq بعينه حادث، لأنه لم يكن موجوداً قبل التلظ به، فلا يمكن أن يوصف بالقدم لا فرداً ولا نوعاً.

¹ ص 28

² أي اللفاظ، وما نقل عن بعض السلف من الإنكار على الحكم بالمعبر بالضمير على معانيه السميعة منهم الله.

³ البخاري فتح 98، 7

⁴ القام المحرر

والقرينة على أن السلف يقصدون بوصف القدم الإطلاق الأول - وهو الصفة
الانفسية - ما صحح عن الإمام أحمد، فيما جابوب به المتوكل وغيره - كما هو مذكور
في كتاب السنة وعيون التواريخ وغيرهما - أنه كان يقول: القرآن من علم الله،
وعلم الله غير مخلوق، فالقرآن غير مخلوق.

فهذا دليل على أنه يريد بالقرآن ما هو قائم بالله¹.

وكل الكون الحادث بما فيهم الكاتب والقارئ من علم الله، وعلم الله غير مخلوق،
فأنا وأنت قديمان باعتبار وجودنا العلمي في ذات الله أزلا، وحادثان باعتبار
وجودنا المادي والروحي.

تحليله يؤدي إلى أمور باطلة، لأن القائم بذات الله لا يخلو إما أن يكون أفراد
الحادث أو جنسها، فإن كان أفراد الحادث استلزم ذلك حدوث الله لأن ما لا
يخلو عن الحادث حادث، وهذا ما يقر به ابن تيمية، يقول في منهاجه: وأما تلك
المقدمة القائلة أن ما لا يخلو من الحادث فهو حادث، فهي صحيحة، إن أريد أحاد
الحادث وأفرادها المتعاقبة في الوجود².

وإن كان يقصد جنس الحادث يتناقض نفسه؛ لأنه يقول بقيام الحادث³ بذات الله،
ويقول بأن القائم به الجنس القديم، أي أن القول بأن القائم به شيء حادث يتناقض
مع القول بأن القائم به قديم.

والقائم بذات الله إن كان بمشيئته فيمضي هذا أنه لم يكن موجودا ثم وحد لضرورة
نوع الاختيار له، وعليه فيكون الجنس حادثا قديما، وهو ما لا يجوز، لأن
التقيضين لا يجتمعان.

وإن لم يكن بمشيئته دل على سلب الاختيار عن الله عز وجل، وسلب الاختيار عن
الله محال⁴.

¹ تكملة السيف المصقل 197-198

² منهاج السنة 118، 1-119

³ وعلى تصده هذا يكون الجنس حادثا، لأنه يقر بوصف الله بالحادث، ولا يقصد الأفراد. ثم يبق إلا الجنس
وتنوع فيكون الجنس قديما حادثا

⁴ ابن تيمية ليس سلفا 153-154

وإذا كان تحليله باطلا، فلا يكون وصف الله بأنه يتكلم بألفاظ مرتبة من صفات الكمال، لأنه يؤدي -كما سلف- إما إلى القول بحدوث الله وإما إلى القول بسلب الاختيار عنه.

يقول ابن تيمية: ولهذا كان من الكمالات ما هو كمال للمخلوق، وهو نقص بالنسبة إلى الخالق، وهو كل ما كان مستلزما لا مكان لعدم عليه المنافي لوجوبه وقيوميته، أو مستلزما للحدوث للمنافي لقدمه¹.

3. تحليله يؤدي إلى التناقض، فأقواله السابقة يجزم فيها بأن الله حين يتكلم بالقرآن وغيره يتكلم بصوت وحرف، وما تكلم به فهو قائم به. وأقواله في فتاويه تعارض هذا أو تنفيه، وتثبت قائله بأنه من أهل البدع، يقول ابن تيمية في فتاويه:

وأما قولهم، ولا يقول: إن كلام الله حرف وصوت قائم به، بل هو معنى قائم بذاته، فقد قلت في الجواب المختصر البدهي: ليس في كلامي هذا أيضا ولا قلته قط بل قول القائل: إن القرآن حرف وصوت قائم به بدعة، وقوله: إنه معنى قائم به بدعة. لم يقل أحد من السلف لا هذا ولا هذا، ولما ليس في كلامي شيء من البدع، بل في كلامي ما أجمع عليه السلف².

وما بقوله ابن تيمية في هذه الفتوى يوافق ما جاء في مجلس استقبلته الذي حضره أئمة وعلماء ذلك الزمان، والذي كتب فيه بخط يده ما نصه:

الحمد لله.

الذي أعتقد أنه في القرآن معنى قائم بذات الله، وهو صفة من صفات ذاته القديمة الأزلية، وهو غير مخلوق، وليس بحرف ولا صوت، وليس هو حالا في مخلوق أصلا، ولا ورق ولا حبر ولا غير ذلك... وكل ما يخالف هذا الاعتقاد فهو باطل، وكل ما في خطي أو لفظي مما يخالف ذلك فهو

¹ مجموع الفتاوى 87,6

² مجموع الفتاوى 30,5

باطل، وكل ما في ذلك مما فيه إضلال الخلق، أو نسبة ما لا يليق به إليه، فأننا برئ منه، فقد تبرأت منه، وتائب إلى الله من كل ما يخالفه. كتبه أحمد بن تيمية، وذلك يوم الخميس سادس شهر ربيع الآخر سنة سبع وسبعمائة.

وكل ما كتبته في هذه الورقة، فأننا مختار في ذلك غير مكره. كتبه أحمد بن تيمية.

حسبنا الله ونعم الوكيل.

وبآخر هذا المکتوب رسوم شهادات الأئمة:

• كتب المذكور بخطه أعلاه بحضورى واعتزالى: أحمد بن الرفعة.

{ وأحمد بن الرفعة هذا له كتاب المطلب العالى فى شرح وسيط الغزالي فى أربعين مجلداً }

• أقر بذلك كتبه عبدالعزيز النمرلوى.

• أقر بذلك كله بتاريخه، على بن محمد الباجى الشافعى.

• جرى ذلك بحضورى فى تاريخه. الحسن أحمد بن محمد الحسينى.

• كتب المذكور أعلاه بخطه واعترف به عبدالله بن جماعة².

فعلى أي فتوى سنعتمد، وأي عقيدة يا ترى سنعتقد؟ هل نعتقد أن الله صوّتاً كما جاء فى الفتوى الأولى المنشورة فى كثير من كتبه، والذى قال فيها إنها تستند إلى

¹ وكنت لائن تيمية مجالس متعددة، حاور، فيها المشاء، وأقر فيها بخطه، وثاب معه، ثم رجع إليه، ومن

شهر من حاوره

العلامة كمال الدين الزمكلى بطريرك القسطنطينية.

العلامة محمد بن عمر بن مكي صدر الدين المرحل الذي قال عنه نتائج السبكي فى طبقاته الكبرى 236:

وله مع ابن تيمية المداخلة الحسنة، وبه حصل عليه التصويب من أئمة ابن تيمية، وقيل به ما هو بعيد عنه

² مسجلة هذه الاستشارة فى يوم المهدي، والأصل المخطوط محفوظ بمكتبة الأمانة بباريس تحت رقم 618.

نكته السبكي الصغير 94-95، التوفيق الربيعي 38-40

القرآن والسنة والإجماع؟ أم على الفتوى الثانية التي تقول: إن من يقول بالسفوى الأولى مبتدع ضال؟

والمسألة مسألة عقيدة، ومن شأن العقيدة الثبات والوضوح، ومن ميزاتهما أنها لا تحلها أزمة مادية ولا اضطرار بشري.

فعن ماذا يعبر هذا التناقض؟ وما الذي يدل عليه هذا التباين؟ ويشير إليه هذا الانتقال من قول إلى قول؟

مفرج في إجابة هذه الأسئلة إلى ابن تيمية نفسه، فهو أدري بنفسه من غيره،

بقول ابن تيمية:

إنك تجد أهل الكلام أكثر الناس انتقالاً من قول إلى قول، وجزماً بالقول في موضع، وجزماً بنقيضه وتكفير قائله في موضع آخر.

وهذا دليل عدم اليقين، فإن الإيمان كما قال فيه قيسر لما سأل أبا سفيان، عن أسلم مع النبي -صلى الله عليه وسلم-: هل يرجع أحد منهم عن دينه سخطاً له بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا.

قال: وكذلك الإيمان إذا خالط بشائسته القلوب لا يستعصم أحد.

ولهذا قال بعض السلف -عمر بن عبد العزيز أو غيره-: من جعل دينه عرضاً للخصومات أكثر النفل.

وأما أهل السنة والحديث فما يعلم أحد من علمائهم ولا صالح عامتهم رجح قط عن قوله واعتقاده¹.

ويقول ابن تيمية أيضاً في تعليل أسباب التناقض في معرض حديثه في الرد عن أحد العلماء: وهو متناقض في عامة ما يقوله، يقرر هنا شيئاً ثم ينقذه في موضع آخر، لأن المواد العقلية التي كان ينظر فيها من كلام أهل الكلام المبتدع المسموم عند السلف، ومن كلام الفلاسفة الخارجين عن القلة، يشتمل على كلام باطل -

¹ مجموع الفتاوى 40، 4.

كلام هؤلاء وكلام هؤلاء- فيقرر كلام طائفة بما يقرر به، ثم ينقضه في موضع آخر بما ينقض به¹.

وخلاصة هذه النقول :

أ. أن ابن تيمية ليس من أهل اليقين في هذه العقيدة، لوجود التناقض فيها من الضد إلى الضد.

ب. لا يشبه الصحابة والسلف في الثبات على العقيدة.

ج. جعل دينه عرضاً للخصومات، فوجدت عنده ظاهرة التناقض من عقيدة إلى عقيدة.

د. أن عقيدته في القدم للنوع التي سبق الحديث عنها، وسبق بيان مخالفتها للخصوص الدينية من كلام الفلاسفة الخارجيين عن الملة.

4. تحليل ابن تيمية لا يعتمد الصدق في الامتداد فقد قال بقيام الحوادث بالله، ونسب هذا القول إلى السلف الصالح وأئمة الحديث، مع أن أول من ابتدع هذا القول الكرامية-المجسمة- أتباع محمد بن كرام، يقول الإمام الاسفراييني في بيان مذهبهم:

ومما ابتدعوه من الضلالات مما لم يتجاسر على إطلاقه قتلهم واحد من الأمم لعلمهم بافتضاحه، هو قولهم بأن مسودهم محل الحوادث، تحدث في ذاته أقواله وإرادته².

ويقول الشيخ حراس - من أتباع ابن تيمية- في كتابه ابن تيمية السلمي:

وحوز قيام الحوادث بداته سبحانه للكرامية.. وتبعهم ابن تيمية في تجويز قيام الحوادث بالذات، وعلا في مناصرة هذا المذهب والدفاع عنه ضد مخالفيه من

¹ المرجع السابق والجزء 542

² تنصير في الدين 66

المعتكفين والعلاسفة، وادعى أنه هو مذهب السلف مستدلاً بقول الإمام أحمد وعبره: لم يزل الله متكلماً إذا شاء¹.

ومما يبطل نسبة الإراءات المتجددة وقيام الحوادث بالله للإمام أحمد، ما قاله أسو الفصل التيممي في كتابه "اعتقاد الإمام أحمد": وذهب أحمد بن حنبل -رضي الله عنه- إلى أن الله عز وجل يعضب ويرضى، وأن له غضباً ورضاءً، وقرأ أحمد قوله عز وجل:

﴿وَلَا تَطْعَمُوا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضِي وَمَنْ يَحِلَّلْ عَلَيْهِ غَضِي فَقَدْ هَوَى﴾².

وأضاف الغضب إلى نفسه.

وقال عز وجل: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتقمنا منهم﴾³ الآية.

قال ابن عباس: يعنى أغضبونا.

وقوله أيضاً: ﴿فَحَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ﴾⁴.

ومثل ذلك في القرآن الكريم كثير.

والغضب والرضا صفتان له من صفات نفسه، لم يزل الله تعالى غاصباً على ما سبق في علمه أن يكون مما يفضبه، ولم يزل راضياً على ما سبق في العلم أنه يكون مما يرضيه⁵.

وقول الإمام هذا:

— يعنى حدوث حسنة الله، فليس له غضب حادث، ولا رضا حادث، وإنما هو غاصب أزلاً على من علم أنه سيخالفه، ورضى أزلاً على من علم أنه سيرضيه.

— يرى الإمام أحمد -رضي الله عنه- صراحة من عقيدة قيام الحوادث بالله.

¹ 133-134

² طه 81

³ الفرق 55

⁴ النساء 93

⁵ المقالات السنية 77 ذو الشارح

- يدين ابن تيمية الذي نسب هذه العقيدة إلى الإمام مع أنه براء منها.
يقول المحدث الكوثري: نسبة القول بقيام الفعل الحادث بالله سبحانه إلى أحمد،
وجعفر الصادق، وابن عباس -رضي الله عنهم- نسبة خاطئة غير صحيحة¹.
— يضعف الثقة بفتاوى ابن تيمية وبمصاديقه في النقل، يقول المحدث الهرري: لا
يغتر مطالع كتبه بنسبة هذا الرأي إلى أئمة أهل السنة، وذلك لأنه أن ينسب رأيه
الذي يراه ويهواه إلى أئمة أهل السنة².

5. تحليله السابق يحمل الله في قائمة المتخلفين من حيث الأداء الصوتي، فصورته يشبه
الصواعق التي قال الله فيها:

﴿يَجْعَلُونَ أَصَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حُدُودًا﴾³

﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾⁴

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثَمُودَ﴾⁵

وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا سمع الرعد والصواعق قال: ((اللهم
لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك))⁶ ويجعل صوت البشر العائنين أفضل من
صوت الله، بل يجعل صوت الحيوانات كالعنابل والقمارى أفضل من صوت
البارى، لأن أصواتها مستطابة، مستتدة، موزونة، متناسبة المطالع والمقاطع.
أليس جمال الصوت صفة كمال لا صفة نقص؟ ومن تكلم بصوت جميل كان أكمل
من لا يتكلم بصوت جميل؟ فكيف يتصف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق؟
وكان الواجب على ابن تيمية أن يبحث ويتأمل في حديث الصواعق الذي جاء فيه
﴿لَنْ يَكُفَّ اللَّهُ عَنْهُمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُونَ بِصَوْتٍ يَسْمَعُونَ الصَّوَاعِقَ﴾ متنا ومندأ.

¹ ينصرف بكلمة السيف السفل 71

² الفتاوى السنية 96

³ البقرة 18

⁴ الرعد 14

⁵ فصلت 12

⁶ مسند الإمام أحمد 15,20 ورواه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الرعد بأنه يطلق أحسن النطق بعيسى
في حنبسونه بالنسبيح والتكبير. ذكر المطور 58,4 ((قال لعبدى يقول لى هو أحسن))

ممتته مخالف لمصوص الفران القطعية «ليس كمثله شيء»¹ «ولم يكن له كمواً
أحداً»² مما يؤكد عدم صحة الحديث. وقد ذكره ابن الحورى فى الموصوعاب،
ونقل ذلك عنه المصيطلى فى كتابه [اللائى: المصوعة فى الأحاديث
الموصوعة 12، 1].

وقد أكد العلامة المحدث الكونرى القول بموصعه فى الرد على بونية ابن القيم،
وقال فى مقالاته: لم يصح فى سنة الصوت لله حديث³.

6. عقيدته فى نسبة الصوت إلى الله تشبه عقيدة اليهود الذين حرفوا الكلم عن موضعه
فى اللفظ والمعنى، سواء هذا فى مقولاته، أو فى المراجع التى يحت على قراعتها،
ككتاب التوحيد لابن خزيمة الذى يصعه بأنه إمام الأئمة⁴:

— جاء فى كتاب التوحيد لابن خزيمة ص 146: فإذا سمعوا صوته صمغوا من
عظمة الصوت وشدته.

— جاء فى سفر التنبيه الاصحاح 5 الآية 24: إن عدنا نسمع صوت الرب إلهنا أيضا
نموت.

— جاء فى كتاب التوحيد لابن خزيمة 137: فعلم أنه — أي الله — كلم بعضهم فيسمع
كلامه ولا يرى شخصه.

— جاء فى سفر التنبيه الاصحاح 4 الآية 12: فتكلم الرب من وسط النار، وأستم
سامعون صوت كلام، ولكن لم تروا صورة بل صوتا.

— يقول ابن تيمية فى شرح العقيدة الواسطية ص 96: والله سبحانه يادى آدم وحواء
بصوت.

— جاء فى سفر التكوين الاصحاح 3 الآيات 8-10: وسمعا — آدم وحواء — صوت
الإله مائتيا فى الجنة، فقال آدم سمعت صوتك.

¹ النورى

² الصمد

³ مقالات الكونرى 28

⁴ بالرغم من أنه يرى على نفسه أنه لا يصح علم الكلام

—

يقول ابن تيمية في شرح العقيدة الواسطية 96: والله سبحانه نادى موسى بصوت. جاء مثله في سفر الخروج الاصحاح 19 الآية 19: موسى يتكلم، والله يجيبه بصوت.

—

يقول ابن خزيمة في كتاب التوحيد 146: يسمعون صوته عز وجل بالوحي قويا، له رنين وصلصلة.

ويقول سفر أيوب الاصحاح 37 الآيات 2-6: الله يردد بصوته عجايب. ويلاحظ في هذه النقوليات التقارب في اللفظ والمعنى والعقيدة، وإذا علمنا ما يقوله أئمة الحديث من أن الأحاديث التي تنسب للصوت لله مباشرة أحاديث غير صحيحة¹، علمنا مصدر الوضع، ونوع الأذى الأئمة الممتدة إليها.

7.

إذا أخذنا بتحليل ابن تيمية لكلمة الإمام أحمد بن حنبل "لم يزل الله متكلمًا إن شاء" أن الله لم يزل يكلم أحدا من خلقه منذ القدم، ولا بداية لهذا التكليم، فيعني هذا أنه لا بداية لوجود المخلوقات؛ لأن صفة التكليم متوقعة على وجود أحد يكلمه.

وهذا ما لا يقره عليه أحد لمخالفته الإجماع والنصوص الدينية: يقول ابن حزم في كتابه مراتب الإجماع في باب الإجماع في الاعتقادات يكرر من خالفه بإجماع: اتفقوا على أن الله عز وجل وحده لا شريك له، خالق كل شيء، وأنه تعالى لم يزل وحده، ولا شيء غيره معه، ثم خلق الأشياء كلها كما شاء.

ويقول الألباني في شرحه المختصر للعقيدة الطحاوية ص 35: للعلماء اتفقوا على أن هنالك أول مخلوق، والقاتلون بحوادث لا أول لها مخالفون لهذا الاتفاق؛ لأنهم يصرحون بأن ما من مخلوق إلا وقبله مخلوق، وهكذا إلى ما لا أول له، كما صرح بذلك ابن تيمية في بعض كتبه.

قال جلال الدين الداوودي² رحمه الله تعالى: في شرح العضدية: وقد رأيت في تأليف لأبي العباس أحمد بن تيمية القول بالقدم الجنسي في العرش³.

¹ الأحاديث الصحيحة التي استدل بها ابن تيمية على ثبوت الصوت لله ليس فيها ما يدل على ثبات الصوت لله وسبب قويا تحليلها.

² وثقه العلامة السخاوي في قدر الطالع.

³ المقاتل سنة 67

ويعنى هذا أنه لا بداية للعرش نوعاً؛ لأنه ما من عرش حانت إلا وقبله عرش مثله سابق عليه إلى ما لا بداية في الأولوية. واعتقاده هذا يخالف به قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((كان الله ولم يكن شيء غيره))¹

فإنه هو الموجود المفرد وحده بالوجود في الأزل، قال الله تعالى: «هو الأول»² وابن تيمية هنا بين خيارين:

البحار الأول

أن يؤمن كما آمن غيره من العلماء بأنه كان الله ولم يكن شيء معه.

فإذا آمن عرف بأن قصد الإمام أحمد بقوله: «إن الله لم يزل متكلماً إن شاء» الصفة النفسية الذاتية القديمة، فهو منتصف بصفة الكلام لولا قبل أن يكلم للرسول، كما هو منتصف بصفة الخلق قبل أن يخلقهم، كما صرح بذلك غلام الخلال من قدماء الحلابة في المنع³.

وهذا القول منسجم مع قول الإمام الطحاوي الذي ينقل فيه عقيدة السلف ولقوالهم: ما زال بصفاته قديماً قبل خلق الخلق... ليس بعد خلق الخلق استقاد اسم الخالق، ولا بأحداثه البرية استقاد اسم الباري⁴.

فهو منذ الأزل موصوف بأوصاف الكمال؛ فهو لم يزل خالقاً إن شاء قبل أن يخلق الخلق، ولم يزل محبباً إن شاء قبل أن يهبهم الحياة، ولم يزل بارئاً إن شاء قبل أن يصورهم كيف شاء، ولم يزل متكلماً إن شاء، أي له صفة التكليم قبل أن يوجد أحد يكلمه.

وإذا دل قول الإمام أحمد على الصفة الذاتية القديمة بطل الاستدلال به على قيام الحوادث بالله سبحانه، لعدم دلالاته على تجدد الكلام في الذات الإلهية مسرة بعد

¹ البغوى - المعنى - 213، 7

² الحديد 3

³ تكملة سبب السبق 80

⁴ العقيدة الطحاوية - الهوى - 36-37

أخرى أزلّا، وانتفى الاعتماد عليه في قدم الألفاظ نوعاً، فليس هناك لفظ قبله لمعط صدر منه إلى ما لا نهاية، لعدم وجود من يخاطب في الأزل.

الحيار الثاني

أو يؤمن بأن العرش حادث فرداً قديماً نوعاً، لا بداية لنوعه، فيصطدم بالحديث الشريف السابق الذي يدل على أن العرش لم يكن موجوداً فكيف يكون قديماً ((كان الله ولم يكن شيء غيره))¹.

ولا ينفعه ترجيحه لرواية ((كان الله ولم يكن شيء قبله))² التي نقل عند ابن تيمية على نفي تقدم الحوادث على الله فقط، دون دلالة على نفي مقارنتها له -أي أن الحديث عنده نفي تقدم شيء عن الله، ولم ينف أن يكون شيء قديماً كالله-.

لا ينفعه هذا الترجيح بلا مرجح، ولا يسلم له لـ:

أ. أن الروايات الأخرى المتعددة لنفس القصة³ صريحة في نفي مقارنة أي موجود لله في القدم:

((كان الله ولم يكن شيء غيره))

((كان الله ولم يكن شيء معه))

((كان الله قبل كل شيء))⁴

والمطوق الصريح مقدم في الاستدلال على المحتمل.

والأحاديث التي يؤمن بها ابن تيمية ويحتج بها تل أيضاً على تأخر خلق العرش على الماء، وعلى عدم وجوده في زمن ما:

¹ البخاري-المعنى-213,7

² البخاري-المعنى-172,4

³ لأنها وردت إجابة لسؤال أهل اليمن النبي صلى الله عليه وسلم - عن بدء الحق

⁴ نظر فتح الباري 17, 181

— جاء في مسند الإمام أحمد عن أبي الرزین العقيلي أنه قال: يا رسول الله، أين كان ربنا عز وجل قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ قال: ((كان في عمام، ما فوقه هواء، وما تحته هواء. ثم خلق عرشه على الماء))¹.

— وهي الزمردى "لأن الماء خلق قبل العرش".

— وروى السدي في تفسيره بأسانيد متعددة أن الله لم يخلق شيئا معاً خلق قبل الماء². والاقادات الصريحة الواضحة للمتعددة أقوى من الظن الواحد المحتمل في معناه وفي ثبوته، والعمل بالأقوى واجب لكونه أقرب إلى القطع³.

هذا كله إن سابرنا ابن تيمية في كفرته المخالفة للإجماع؛ لأن التعامل مع النصوص لا يلجأ فيه الباحث إلى الترجيح إلا بعد العجز عن الجمع بين الأدلة، يقول الحافظ ابن حجر عن الحديث الذي استدل به ابن تيمية "كان الله ولم يكن شيء قبله": تقدم في بدء الخلق تلفظ "ولم يكن شيء غيره" وهي أصرح في الرد على من أثبت حوادث لا أول لها من رواية الباب يعني حديث كان الله ولم يكن شيء قبله وهي من مستثناة العمائل المنسوبة لابن تيمية، ووقفت في كلام له على هذا الحديث يرجح الرواية التي في هذا الباب على غيرها، مع أن قصيدة الجمع تقتضي حمل هذه [كان الله ولم يكن شيء قبله] على التي في بدء الخلق [كان الله ولم يكن شيء غيره] والجمع يقدم على الترجيح بالاتفاق⁴.

يقصد أن الراوي للحديث [كان الله ولم يكن شيء قبله] يقصد ما يقصده باقي الرواة المعبرين عن نفس الموضوع، بأنه كان الله ولم يكن شيء غيره، والقرينة التي تكفل على قصده:

¹ مسند الإمام أحمد المصحح - 3، 20-4 هذا الحديث لا يسلم به الأشاعرة لأن في مسنده هناك من سننه مختلط، وكان يحمل ربهاء في حديثه ما شاعاه - ويعلم من عطاء في مسنده تفرد به عن وكيع بن حنبل أو حنبل وهو مجهول الصفة، وهو تفرد به عن أبي رزین، ولا شأن لشعردق والوجداني في إثبات الصفات فضلاً عن المجاهيل - وعس به اختلاط تكلمة السيد 109.

² فتح الباری 98،7، المعنى على البحار 214،7. فتح الرمانى على مسند الإمام أحمد 3،2.

³ نهاية السؤل 172،3.

⁴ فتح الباری 181،17.

(1) أن روايته بدأت بالسؤال عن بدء الخلق وأول الأمر "جنناك" لتسلك عن أول هذا الأمر¹.

والواحد على قارئ النص الالتفات إلى أول الكلام وآخره وما اقتضاه الحال، لا ينظر في أوله دون آخره، ولا في آخره دون أوله حتى يتبين له المراد، يقول ابن تيمية: التأويل المقبول هو ما دل على مراد المتكلم².

(2) أن روايته وهو الصحابي الجليل عمران بن حصين -رضي الله عنه- صرح بقصده في رواية أخرى، بما يعبر على أن لجميع هذا الكون بداية، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يا أهل اليمن اقبلوا البشرى إذ لم يخلقوا بنو تميم))، قالوا: قلنا، قال عمران بن حصين: فأخذ النبي -صلى الله عليه وسلم- يحدث بدء الخلق والعرش³. أي عن بدء الخلق والعرش.

وما يفيد هذا الحديث هو ما يؤمن به السلف الصالح، قال الإمام الطحاوي في عقيدته التي يعبر بها عن عقيدة السلف وأقوالهم:

"ما زال بصفاته قديما قبل خلق الخلق .. ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق، ولا بإحداثه البرية استفاد اسم الباري⁴

ومضمون كلامهم أنه لم يكن شيء مع الله، والسلف بما فيهم عمران بن حصين -رضي الله عنهم- أعلم بأقوال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأدري بدلالات كلامه من ابن تيمية.

ب. لأن فهمه بأن العرش حادث فردا قديم نوعا، وأن نوعه يشارك الله في الأولوية والقدم، يؤدي به إلى التهاافت⁵، لأنه حين يكون كل فرد مسبوقا بالعدم، يكون الكل كذلك، أي مسبوقا بالعدم؛ لأنه لا وجود للنوع إلا في ضمن أفراد كذا تقدم،

¹ البخاري -المعجم- 172,4

² درء التعارض 201,1

³ البخاري -المعجم- 212,7

⁴ العقيدة الطحاوية -الهروري- 36-37

⁵ الشريعة ليس فيها باطل ولا نيل عليه «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»

فليست الجملة شيئاً أكثر من الأفراد مجتمعة، فإذا كان كل فرد حادثاً، لزم من ذلك حدوث الجملة قطعاً¹.

ومعنى كون الكل حادثاً أنه مسبوق بالعدم، وأن الله كان ولم يكن شيء غيره.

8. إن تحديد ابن تيمية للفرق بين صوت الله وصوت البشر، بأن صوت الله يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب²، لم يعد اليوم يقتنع أحداً، بعد ما أدت نتائج التقنية والعلم الحديث إلى أن أصوات المخلوقات كذلك، تسمع من قرب ومن بعد، بواسطة الهاتف والإذاعة المرئية والمسموعة...
فإن قلت: إن هذه التشابه حامت بواسطة الآلات بخلاف صوت الله القوي بذاته: فالجواب:

- (1) أن ابن تيمية حدد الفرق بالفرق بين الإسماع من بعد ومن قرب.
- (2) أن من المخلوقات من يسمع بنفسه من بعد ومن قرب بلا واسطة، كجبريل الذي ساق صيحة في ثمود سمعها كل أهل ثمود، وكالميت حين يوضع على المبرير - النعش - فيصبح صيحة يسمعها كل شيء إلا النملان.



¹ انظر ما تقدم من التبرير في بداية التمهيد رقم 1

² شرح المفردة الأسفلانية 28

التقوية من حيث النص

جعل ابن تيمية مستنده في إثبات عقيدة الصوت لله القرآن الكريم والسنة النبوية.

1. القرآن الكريم

استدل ابن تيمية بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ لِلْغَيْبِ الْحُسَيْنِ﴾¹ الذي يدل عنده على أنه يتكلم بحروف وألفاظ وصوت²، لأنه لا يصح في العقل نداء غير مسموع لنا، ولا يسمع إلا الصوت.

الجواب:

هذا النص وغيره من النصوص التي استند إليها ابن تيمية، لا تثبت ما يريد إثباته عن طريقها، فالنداء طلب الإقبال عند الحاجة واللغوين، وطلب الإقبال عند البشر مشروط به الصوت واللفظ والحرف، لكن ما الدليل على أن نداء الله كذلك يشترط فيه اللفظ والصوت، والله ليس كمثله شيء.

وعقيدة السلف أهل اللغة أن الله لا يشبه مخلوقاته، فلا يتكلم بحرف، ولا يقول بلفظ كمادة البشر:

يقول الصحابي الجليل علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه-: إن الله كلم موسى -عليه السلام- بلا جوارح، ولا أنوف، ولا حروف، ولا شفة، ولا لهوات، سبحانه عن تكيف الصفات.

- ويقول:

أمر بلا حروف، قائل لا بألفاظ³.

¹ مجموع الفتاوى 531,6

² المرحم السابق الجزء 532

³ الإنصاف للبهلولي 90 ابن تيمية ليس سلفاً 69-70

- ويقول الإمام أبو حنيفة في كتابه الفقه الكبير ص 51: الله تعالى يتكلم بلا آلة ولا حروف، والحروف مخلوقة، وكلام الله تعالى غير مخلوق.

- ويقول الجنيد - من أئمة التصوف السابقين -: جَلَّتْ ذِكرُهُ عن الحدود، وجَلَّ كلامه عن الحروف، فلا حدَّ لذاته، ولا حروف لكلامه¹.

والجنيد إمام هدي كما قال ابن تيمية².

وهذه الأقوال تبطل دعوى الإجماع في قول ابن تيمية: إن الله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه بصوت نفسه، كما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع³.

فلين هذا الإجماع الذي لكده ابن تيمية ؟

ثم إن تحليله للنفس القرآني يخالف منهجه الذي بينه في فتاويه، والذي نص فيه على ((أن السلف كانوا يراعون لفظ القرآن والحديث فيما يثبتونه))⁴ ولو رعاها لقال: نادى الله موسى ولم يزد، بدون بحث في الكيفية.

فهو قد خالف منهجه، وخالف عقيدته التي يؤمن بها ((أن صوت الله يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب)) لأنه إذا كان نداء الله لموسى بصوته الذي يسمعه من بعد ومن قرب فلم يقتصر سماعه على موسى ؟

فإن أحاب بأن صوت الله يتفاوت قوة وضعفاً، ويرتفع وينخفض وينعقد ويتكوع تتفاض مع قوله بأنه صوت لا كأصواتنا؛ لأن أصوات البشر هكذا تتفاوت وتنعقد وتكوع، والله يقول عن نفسه «ليس كمثله شيء»

وإن أجاب بأنني اعتمدت في هذا على الأحاديث، فليس في الأحاديث الصحيحة ما يثبت الصوت لله من أصله، والأحاديث الضعيفة والموضوعة لا يستدل بها في مجال العقيدة.

وأشهر الأحاديث التي استند إليها ابن تيمية في إثبات الصوت لله:

¹ الإنصاف 90

² مجموع الفتاوى 491.5

³ مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية 154.3

⁴ مجموع الفتاوى 432.4

١- ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه - قال: قال النبي -

صلى الله عليه وسلم: ((يقول الله: يادم، فيقول: لييك ومسحك، هينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك معنا إلى النار))^١

فظاهر هذا الحديث عند ابن تيمية يدل على أن لله صوتا.

وتأويله هذا يدعو إلى الأخذ بالظاهر مع وجود القرينة الصارفة عنه، وهو ما لا يجوز في تحليل القصص، فقولك: ((رايت أمدا يحطبل على المنبر)) لا يجوز أن نقول إن المقصود من لفظ الأمد فيه الحيوان المنتصر، لوجود القرينة الصارفة عن هذا القصد، وهي ((يحطبل على المنبر)).

وكذلك الأمر في الحديث الشريف، جملة ((إن الله يأمرك)) قرينة صارفة عن نسبة الصوت إلى الله، لأنه لو كان الله هو المنادي بصوت لقال ((إني أملك)) مما يدل على أن المنادي ملك لأمر الله، لأن من يخبر عن غيره يأتي باسمه الطاهر.

يقول ابن تيمية: موجب اللغة التي بها خاطبنا، أن ضمير المتكلم لا يقوله إلا المتكلم، فلما من أخبر عن غيره، فإنما يأتي باسمه الطاهر. إن السلطان إذا أمر غيره أن ينادي أو يكلم غيره أو يخاطبه فإن المنادي ينادي: معاشر الناس، أمر السلطان بكذا^٢.

وهذا ما أوضحه حثمة رضي الله عنه - في قوله: ينادي مناد يوم القيامة: يخرج بحث النار من كل ألف تسعمائة وتسعون^٣. فنسب النداء للمنادي. والتعبير في حديث أبي سعيد السابق مشابه للتعبير في الحديث الذي سأل فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جبريل عن تأويل آية «خذ العفو» فقال:

^١ في باب قول الله تعالى فلا تفتح الشهادة عنه إلا بالله البخاري - السدي - 120,4

^٢ مجموع الفتاوى 417,5

^٣ أخرجه أبو يعقوب في الحلقة قدر المسور 310,6 يوما يستأنس به في التوجيه أيضا حديث ابن مسعود فهو وإن كان ضعيفا، فالأحاديث الضعيفة يستدل بها في التوجيه، ونسبه: ((إن الله عز وجل يبعث يوم القيامة مناديا يدعى يا آدم إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك إلى النار)) مسند الإمام أحمد - المصحح - 116,24 وفطر كتاب أثر الحديث الشريف للمحدث من رواية أبي تيمية تسعمائة التسلف بالحديث الضعيف في التوجيه.

حتى أسأل، فصعد، ثم نزل، فقال: يا محمد، إن الله يأمرك أن تصفح عن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك¹.

ومثابه للكثير الذي أخرج ابن عساكر والواسطي عن يزيد بن جابر: يقف إسرائيل على صخرة بيت المقدس، فينفخ في الصور، فيقول: يأيها العظام النخرة، والجلود المتفرقة، والأشعار المنقطعة، إن الله يأمرك أن تجتمع في لفصل الحساب².

فالقاعدة -كما قال ابن تيمية- أن من يخبر عن غيره فإنما يأتي بإسمه الظاهر. ولهذا علمنا أن المنادي في الحديث ((ينادي بصوت، إن الله يأمرك...)) ملك يخبر عن الله سبحانه.

2- حديث السلسلة

من الأحاديث التي استدل بها ابن تيمية على إثبات الصوت لله تعالى، قوله صلى الله عليه وسلم: ((إذا تكلم الله بالوحي، سمع أهل السماء كجر السلسلة على الصفا)) الذي يدل على إثبات صوت لله يشبه الصوت الذي يحدث عند جر السلسلة على الصفا والصحر.

الجواب

أ. أن هذا الحديث جاء بلفظه في قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود بلفظ ((سمع أهل السماء للسماء كجر السلسلة على الصفا))³ الذي يدل على أن الصوت للسماء، والقاعدة في تفسير النصوص ((أن خير ما يفسر به الوارد)).

ب. أن في الحديث قرينة تكل على أن الصوت لغير الله، وهي التشبيه ((كجر السلسلة)).

فحينئذ عرف أنه لا يقصد الله، لأن الله ((ليس كمثله شيء)).

¹ الدر المنثور 3، 166.

² المرجع السابق 6، 122.

³ أخرجه أبو داود في سننه: كتاب السنة: باب في القرآن.

والأخذ بالظاهر الحرفي مع وجود القرينة الصارفة لا يحوز في تحليل النصوص، قال ابن تيمية في الفتاوى الدمشقية:

إن الظهور يكون بالوضع اللغوي، أو العرفي، أو الشرعي، أو بما اقترن باللفظ المراد من التركيب الذي تتغير به دلالاته في نفسه، أو بما اقترن به من التران اللفظية التي تجعلها مجازاً. وسياق الكلام الذي يمين أحد محتملات اللفظ¹.

ووجود القرينة في الحديث يعبر عن:

- بيان النبي صلى الله عليه وسلم - لمقصده من الكلام.
- عدم تدبر من يأخذ بالظاهر الحرفي للنص، واستعجاله في وصف الله بما لم يصف به نفسه، ولم يصفه به رسول صلى الله عليه وسلم.
- والفتاوى الدمشقية لابن تيمية:
- تعيننا على تفهم النص السابق، وتؤكد صحة التحليل.
- تبين تعارض ابن تيمية في فتاويه، ففي مواطن منها ينكر المجاز، ويعلن عدم وجوده في اللغة، وفي هذه الفتاوى يصرح بوجوده، ويثبت وقوعه.
- ج. أن تحليله يتعارض مع استدلالته التي وصف فيها صوت الله بأنه جميل، لأن صوت جر المسلسلة على الصخر عذيف مزعج، يبعث القلق في النفس، ويدخل عليها الضيق والاستياء.
- 3- ما رواه البخاري في باب قول الله تعالى: «ولا تنفع الشفاعة عنده إلا بإذنه»، قال: وينكر عن جابر عن عبدالله بن أنيس قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((يحشر الله العباد، فيناديهم بصوت، يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب، أنا الملك، أنا الديان))².
- وهذا الحديث يدرس من ناحيتين:

- من حيث صحته. - من حيث دلالاته.

¹ شرح لامية ابن تيمية 131

² البخاري - فتح - 234، 17

هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه بصيغة التعريض [[ويذكر عن جابر]] دالة على أنه ليس على شرطه.

وأخرجه في كتابه الأئب المفرد، وأخرجه أحمد وأبو يعلى والطبراني كلهم من طريق همام بن يحيى عن القاسم بن عبد الواحد السكي عن عبد الله بن محمد بن عقيل¹، فمدار الحديث على عبد الله بن محمد بن عقيل، الذي قال عنه الإمام أحمد: منكر الحديث، وعن ابن معين: ابن عقيل لا يحتج بحديثه، وقال عنه ابن المديني: كان ضعيفا، وقال النسائي: ضعيف. وقال ابن خزيمة: لا أحسج به لسوء حفظه، وقال عنه الذهبي: لا يرتقى خبره إلى درجة الصحة والاحتجاج. وللحافظ المقتضى جزء في تبين وجوه الضعف في الحديث المذكور².

ولا يعتمد على توثيق الهيثمي لرواية أحمد، لأن مدارها أيضا عن القاسم بن محمد.

ويدافع بعض العلماء بما ذكره ابن حجر في الفتح (174، 1) بأن له طريقا آخر، أخرجه الطبراني في مسند الشاميين، وتما في فوائده، من طريق الحاج بن دينار عن محمد بن المنكر، عن جابر بمعنى حديث أنس. قال عنه ابن حجر: إسناده صالح.

والجواب كما قال الشيخ حسن المصنف - كيف يقولون قول الحافظ ابن حجر ((إسناده صالح)) مع أن إسناده غير صالح، توجد المحاذير في طريق الطبراني في مسند الشاميين، وتلف إسناده الضعيف، ويرفعون بعد ذلك قول الحافظ في ((التلخيص)) عن حديث الثقلين للميت بعد النفن وإسناده صالح؟ فعثمان الصيدلاني الذي في مسند الطبراني في مسند الشاميين، وشيخ سليمان بن صالح مجهولان، وشيخ الثاني وهو عبد الرحمن بن ثابت صدوق يخطئ، رمي بالفتور، تغير بأخرة كما في التقريب³.

¹ فتح الباري 17، 234.

² تذكرة السيوطي 71-72.

³ إجماع المحققين على المتناول على الأشارة 31.

وعلى فرض صحة الحديث فلأنس فيه على أن الصوت لله لأن الضمير المستمر في الفعل يُناديهم بصوت يرجع إلى القائم بالحشر، أي أن المنادي هو الحائر، والحائر للعداد يوم القيامة للملائكة ((إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئكت عنها مبعدون لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون))، أخرج أحمد والنسائي والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي ذر قال: حدثني الصادق المصدوق -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أفواج: فوج رلكين طامعين كاسين، وفوج يمشون ويسمعون، وفوج يسحبهم الملائكة على وجوههم، وتحشرهم إلى النار))¹ وأسند الرسول صلى الله عليه وسلم -الفعل إلى الله، لأنه الأمر به، قال الله تعالى: ((ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم))

وهذا التحليل موافق لقاعدة ابن تيمية في تأويل النصوص التي تقول: إن الأفعال والألفاظ التي وردت في القرآن عن الله، مشتملة على ضمائر الجمع، والتي تتحدث عن تكبير الكون، مثل: إنا، ونحن، ونحش، ونميت، ونعلم، ونكتب، ونسمع، وكذلك الأسماء المشتملة على: حافظون، ومنتمون. تدل على الله باعتباره الأمر، وتدل على الملائكة باعتبارها المباشرة للأفعال².



¹ البداوي البخاري شيبوي 1972 وفي سنة الإمام أحمد الوليد بن جمع روى له مسلم متابعة، ونسج به السلي مسند الإمام أحمد مع الفتح 101,24 وفي البخاري ومسلم والنسائي: ((يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة طوائف: والعيس وراعيين، وثلاث على يمين وعشرة على يسار، وتحشر طينهم النار))، وعند ابن مرقويه عن السقيني ((يؤتون بنوق من الجنة)) فله في تفسير قوله تعالى: ((ويحشر الناس إلى الرحمن ودهاق)) وعد أن أي شية والحكم وصححه ((ما يحشرون على أرجلهم ولا يساقون سقوا.

ولكنهم يؤنون سوق من سوق الجنة)) الدر 313,4

² مجموع البداوي 512,5-513

أمثلة القاعدة:

1. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ قُرْآنَهُ فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ لَعَلَّكَ تُبْقِىَ وَتُحْيِىَ﴾¹ فيه الفعل بصيغة الجمع «قُرْآنَهُ» يُدَلَّ على أن الله باعتباره الأمر، ويدل على جبريل باعتباره المباشر للقراءة والقائم بها².
2. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ³ وَالْأَنبِيَاءِ بِهِ جَبْرِيلُ، وَأَسْنَدَ اللَّهُ الْإِنْتِزَاعَ إِلَيْهِ بِاعْتِبَارِهِ الْأَمْرَ.
3. قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾⁴ ويقال فيه ما قيل في الأول والثاني، عن الحسن أن جبريل -عليه السلام- اجثت مدينة قوم لوط من الأرض، ثم رفعها بجناحه، حتى بلغ بها حيث شاء، ثم جعل عاليها سافلها⁵.
4. قال الله تعالى: ﴿فَشَرَّهَا يَاسْحَاقُ وَمَنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾⁶ قال السدي: قال جبريل لمارة: أبشرى بولد اسمه إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب⁷.
5. قال الله تعالى: ﴿فَعِظْمَنَّا أَعْيُنَهُمْ﴾⁸ والمعاشر للطمس جبريل كما قال ابن عباس⁹.
6. قال الله تعالى: ﴿الْفَسْقَةُ إِلَيَّ بَدِيتُ﴾¹⁰ والمانق له ملك، أخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال: ((الزعد ملك من ملائكة الله، موكل بالمسحاب، بيديه

¹ الآية 17

² انظر التر المنور 321,6

³ الأعراف 51

⁴ هود 81

⁵ التر المنور 374,3

⁶ هود 70

⁷ المرجع السابق والجزء 369

⁸ التر 37

⁹ المرجع السابق والجزء 373

¹⁰ فاطر 9

محراق من نار، يرجز به الصحف، يسوقه حيث أمره الله¹ ونسب الله الفعل لنفسه باعتباره الأمر.

7. قال الله تعالى: «ونكتب ما قدموا وآثارهم»² فأخير بالكتابة بصيغة الجمع، لأن جنده يكتبون بأمره «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد»³.

8. قال الله تعالى: «ونعلم ما نوسوس به نفسه»⁴ فنل على علم الله، وعلم علم الملائكة «أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون»⁵ فهو يسمع ومن يشاء من الملائكة يسمعون «وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون»⁶.

9. قال الله تعالى: «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقين عن اليمين وعن الشمال قعيد»⁷ فعبر بصيغة الجمع ((نحن)) متلما عبر في قوله تعالى «ونكتب ما قدموا» لما كانت ملائكة متقربين إلى العبد بأمره⁸.

10-13- وكذلك القول في قوله «ونسوق المجرمين إلي جهنم وردا» «ولقد وصلنا لهم القول» «نصليه جهنم» «سندخلهم جنات» مما نسب الله الفعل فيه لنفسه باعتباره الأمر.



¹ المرجع السابق 58,4

² يسي 11

³ ق 18

⁴ ق 16

⁵ الفرق 80

⁶ الانشطار 10-12

⁷ ق 16-17

⁸ انظر الفتاوى لابن عبيد 512,5-513

القاعدة

الأفعال والكلمات التي وردت في القرآن تتحدث عن تنبيه¹ الكون بصيغة الجمع، تدل على الله باعتباره الأمر، وتدل على الملائكة باعتبارها المباشرة للفعل.

تطبيق القاعدة على الموضوع

14-18 بتطبيق هذه القاعدة على قوله تعالى: «ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم» (فوريك لحشرتهم والشياطين لم ينحشروهم حول جهنم حيثما) «يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا» «يوم ندعوا منادى- كل أناس بإمامهم»² نستنتج أن الحشر والمحضر والمندى هم الملائكة، وأن الإنناد في الحديث الشريف السابق ((يحشر الله العباد، فيناديهم بصوت)) إنناد مجازي، وأن المباشر والقائم بالفعل هم الملائكة.

ويدل على صحة هذا الاستنتاج والتأويل من القرآن المنفصلة:

- بالنسبة للحشر والإحضار الأحاديث التي تنبئ عن أن للملائكة هم القائمون بهما، وقد تقدم بعضها.
- بالنسبة للنداء:
- أ. ما قاله حبشمة -رضي الله عنه-: ((يناد مناد يوم القيامة، يخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعون))³.

¹ يسمى هذا العهد أنه لا يقصد به مثل قوله تعالى «نحن نزلت الأرض»، مما لا علاقة له بالتنبيه، كما لا تشمل هذه القاعدة ما كتبت القواعد من قوله تعالى «فمن نزلت الأرض».

² الإسراء 97

³ مريم 67

⁴ مريم 85

⁵ الإسراء 71

⁶ أخرجه أبو سعيد في الحلية للشيخ السبكي 310,6

ب. ما أخرجه ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي -رضي الله عنه- قال: يحشر الله الناس يوم القيامة. وينادي مناد، يسمع الناس الصوت يأتونه، فذلك قول الله تعالى: «يومئذ يسمعون الداعي -المنادي- لا عوج له»¹.

فأُستد في هذا الأثر وفي الذي قبله النداء لعير الله، ومثل هذا لا يقال بالرائي. وكلام القرظي كأنه تفسير لحديث البخاري السابق ((يحشر الله العباد، فيناديهم بصوت)) مما يؤكد صحة القاعدة السابقة في التناويل، التي تنص على أن نون الجماعة في مثل قوله تعالى: «يوم ندعوا -ندادى- كل أناس بإمامهم» تدل على الله باعتباره الأمر، وتدل على الملائكة باعتبارها المباشرة للفعل، قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: «إنكم مجموعون بصمود واحد، ينفذكم للبصر، وتسمعون الداعي»².

ج. ما رواه الطبراني عن ابن مسعود عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم. ثم ينادى مناد: أيتها الناس)) فتسب النداء للمنادي.³

د. ما أخرجه ابن القيم في حادي الأرواح في هامش أعلام الموقعين 97،2- عن الدارقطني من حديث أبي موسى: ((يبعث الله يوم القيامة منادياً بصوت، يسمعه أولهم وآخرهم))⁴.

وفي هذا الحديث بوقان:

هـ. البيان الأول أن المنادي هو الملائكة، وأن من صفات الملائكة إحداث الصوت، وفي حديث مسلم ((فبينما أنا أمشي، سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء))⁵.

¹ قدر المنور 338،4

² رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير وياح السلمي وهو ثقة مجمع الزوائد 346،10

³ ترجع السبق والجرح 343 ورجاله رجال الصحيح غير الدالائي وهو ثقة

⁴ تكلمة السيف الصفيل 172 وهذا الحديث يروي حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- والذي جاء فيه: ((إن الله عز وجل يبعث يوم القيامة منادياً ينادي: يا آدم، إن الله يأمرك أن تسمع بها من ربك إلى الله))

القول: مسند الإمام أحمد -الفتح- 116،24

⁵ مسلم -الأبي- 301،1

- البيان الثاني أن معنى الجملة التي وردت في حديث أنس ((يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب)) هو معنى حملة ((يسمعه أولهم وآخرهم)).
 فإن قلت: جاء في حديث الحشر أن المنادي يقول: ((أنا الدين، أنا الملك)) مما يدل على أن المنادي هو الله.

والجواب:

1. أن النصوص دلت على أن المنادي ملك من الملائكة وأن سمة النداء لله سمة مجازية.
2. أن هذا التعبير في صياغته مشابه لـ:
 أ. ما جاء في صحيح البخاري في حديث المعراج الذي ذكر فيه تخفيف الصلاة من الخمسين إلى خمس ((فلما حازرت ناداني مناد: أمضيت فريصتي، وحفت عن عبادي))¹.
- ب. ما أخرجه ابن جرير عن سليمان التيمي قال: سمعت أن الناس حين يبعثون ليس فيهم إلا فزع، فينادى مناد: ((يا عبادي لا خوف عليكم مني ولا أنتم تحزنون))² فهذا نصان يدلان على أن الملك يقول مبعثاً عن الله.
- ج. قال الله تعالى: «ونادى فرعون في قومه قال يا قوم ليس بي ملك مصر»³ فنسب الله النداء والقول إلى فرعون مع أنه لم مباشر واحداً منهما، أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله تعالى: «ونادى فرعون في قومه» قال: ليس هو نفسه، ولكن أمر أن ينادى⁴.
- د. قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يبرز ربنا إلى السماء الدنيا في الثالث الأخير من الليل، يقول هل من تائب فأتوب عليه، هل من مستغفر فأغفر له...)) فنسب القول إلى الله وأضاف الحزاء إليه ((فأتوب عليه: فأغفر له)) مع أن المباشر للقول هو الملك، كما جاء بيانه في حديث: ((ينادي مناد كل ليلة،

¹ أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب صفات الصفات، باب المعراج - الحديث - 233

² الدر المنثور 24,6 وهذا الأثر أيضاً من القرآن المسئلة التي تنسب النداء لمير الله

³ الزحرف 50

⁴ البقر 21,6

هل من داع فيستجاب له، هل من سائل فيعطى))¹ وجاء في حديث أبي هريرة وأبي سعيد أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله عز وجل يسهل حتى يمضي شطر الليل، فينادي مناد: هل من داع يستجاب له، هل من مستغفر يغفر له، هل من سائل يعطى))².

وأخرجه الطبراني بلفظ ((تفتح أبواب السماء نصف الليل فينادي مناد: هل من داع فيستجاب له، هل من سائل فيعطى، هل من مكروب فيفرج عنه))³.

قال الله تعالى عن آدم وحواء «ولتأداهما ربهما ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين»⁴.

فمنسب الله النداء والقول إليه، مع أن المباشر له الملك⁵.

ملاحظة

طريقة التعبير الديني، وعادة الاستعمال الشرعي حين تسند الفعل إلى الله والملائكة لا تقتصر على صيغة الجمع:

19. قال الله تعالى: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى»⁶.

ففي هذه الآية أسند الله الفعل لنفسه ((أسرى)) بصيغة الإفراد، مع أن القائم به هو التبراق تحت إشراف جبريل -عليه السلام-⁷.

20. قال الله تعالى: «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا»⁸.

¹ مسند الإمام 22، 4

² صححه الحافظ أبو محمد عبد الحق المقالات السنية 102

³ رواه البرقي ورجله رجال الصحيح مجمع الزوائد 153، 10

⁴ الأعراف 21

⁵ المقالات السنية للشيخ الهروي 116

⁶ الإسراء 1

⁷ انظر أماني الإسراء والتفسير في هذه الآية

⁸ الشورى 48

فأسند الله الكلام إليه في الحالات الثلاث، مع أن المباشر للكلام في الصورة الثالثة هو الملك، وأسند الله لنفسه باعتباره المرسل والأمر.

21. قال الله تعالى: «الله يتوفى الأنفس حين موتها»¹ فأسند التوفى إليه، مع أن المباشر له هو الملك، قال الله تعالى: «قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم»².

22. قال الله تعالى: «يوم يجمعكم ليوم الجمع»³ مع أن القائم بالحشر والجمع هم الملائكة، أخرج ابن جرير في قوله تعالى: «واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب»⁴ عن بريدة قال: ملك قائم على صخرة بيت المقدس، واضع في أذنيه، ينادي بقول: يا أيها الناس هلموا إلى الحساب.

وأخرج ابن عساكر والواسطي عن يزيد بن حابر في قوله تعالى «واستمع يوم ينادي المنادي» قال: يقف إسرافيل على صخرة بيت المقدس، فينفخ في الصور، فيقول: يا أيها العظام النخرة، والجلود المتفرقة، والأشعار المتقطعة، إن الله يأمرك أن تحتصي لفصل الحساب⁵.

23-24- قال الله تعالى: «إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً»⁶ «ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه»⁷.

ويقال فيهما ما قيل في النص السابق.

25-26- قال الله تعالى: «هو الذي يرزقكم البرق خوفاً وطمعاً ويضئ السحاب اتصال»⁸.

¹ الرمز 39

² السجدة 11

³ التكاثر 9

⁴ ق 41

⁵ الدر المنثور 122,6

⁶ النساء 129

⁷ آل عمران 9

⁸ الرعد 13

ويقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله عز وجل ينشيء السحاب))¹ في خفي النصبين نسب الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- إنشاء السحاب إلى الله، لأنه الأمر به، بالرغم من أن المباشر له ملك من الملائكة:

- أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن خزيمة بن ثابت -رضي الله عنه- سأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن منشأ السحاب، قال: ((إن ملكاً موكل بالسحاب، يلم القاصية، ويلجم الدائنية، في يده مخراق، فإذا رفع بركته، وإذا رجر رعدت، وإذا ضرب صعقت))².

- وأخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الرعد ملك من ملائكة الله، موكل بالسحاب، بيديه مخراق من نار، يزجر به السحاب، يسوقه حيث أمره الله))³.

27. ومثل النص السابق قوله تعالى: «وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنعوا»⁴ والمسؤول عن الغيث ملك من الملائكة، جاء في الحديث الشريف ((استأجر ملك القطر -المطر- أن يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم-))⁵.

28. قال الله تعالى: «فتلقى آدم من ربه كلمات»⁶ وتلقيه كان عن جبريل المرسل من رب العالمين، كما جاء عن ابن عباس⁷، وأضيف التلقي إلى الله باعتباره الأمر المرسل.

¹ رجاء ثلاث مستد الاسم أحمد 14,2

² أخرجه ابن مردويه الدر المنثور 58,4

³ المرجع السابق والجهد والصفحة

⁴ التورى 26 المسؤول عن المطر ملك من الملائكة-سكيتل- الدر 346,6

⁵ رواد الطبراني وإسناده حسن. مجمع الزوائد 193,9

⁶ البقرة 36

⁷ الدر 65,1

29. عن مجاهد في قوله تعالى: «السماء منفطرة»¹ قال: منقطة بالله²، فأصاف سبب الانفطار إلى الله مع أن سببه القريب هو الخوف من يوم القيامة، أخرج الطبري في معانيه عن ابن عباس، أن نافع الأزرق سأله عن قوله «منفطرة» قال: متصدع من خوف يوم القيامة. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن في قوله «السماء منفطرة» قال: منقطة بيوم القيامة³، وعن ابن جريج: إذا جاءت الساعة انشقت السماء⁴.

والمعنى يؤكد هذا، قال الله تعالى: «يوم يجعل الولدان شيبا السماء منفطرة» أي باليوم، وإما أصافه مجاهد لله؛ لأن منشئه يوم القيامة، وسبب الخوف فيه هو عذاب الله وعقابه وهوله، أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله «السماء منفطرة» قال: منقطة بذلك اليوم من شدته وهوله⁵.

30. عن النعمان بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال: ((إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة))⁶ فنسب الإنزال إلى الله مع أن القائم به جبريل - عليه السلام - «قل نزل روح القدس».

31. أخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان عن أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال: يقول الرب عز وجل: سيعلم أهل الجمع من أهل الكرم. فقيل: ومن أهل الكرم يا رسول الله، قال: أهل الذكر في المساجد⁷ فنسب فيه القول إلى الرب عز وجل باعتباره الأمر، مع أن المباشر للقول الملك، أخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان، عن عتبة بن عامر

¹ المزمّل 18

² أنطقه في القادة لأنه لا يقال فيه بالرأي، بل يكون من باب النقل

³ الدر 310,6

⁴ انظر المرجع السابق 163,3-164

⁵ الدر 310,6

⁶ أخرجه أبو عبد الله والترمذي والنسائي وابن الصوريين ومحمد بن نصر، وابن حبان، والحاكم

وصححه والبيهقي في الاسماء والمسلمات الدر 389,1

⁷ لمرجع السابق 58,3

قال: كما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - في سفر، فقال: ((يجمع الناس في صعيد واحد، يعظّم القصر، ويسمعهم الداعي، ينادي مناد: سيعلم أهل الموقف لمن الكرم اليوم)). وفي رواية ((يفرق مناد ينادي)).¹

32. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يقول الله: يا آدم، فيقول لميك وسعيتك، ينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار))² فنسب النداء إلى الله مع أن القام به ملك، كما سبق بيانه، لأن من يخبر عن غيره يأتي باسمه الظاهر، وهذا ما أوضحه خثمة -رضي الله عنه- عند تفسير قوله تعالى: «يوما يجعل الوردان شيبا» قال: يناد مناد يوم القيامة: يخرج بعث النار، من كل ألف تسعمائة وتسعون، فمن ذلك يشوب الوردان.

وقد تقدم لنا عند قوله تعالى: «يوم ينادي العنادي» أن القام بالنداء الملائكة. قال الله تعالى: «ولاداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة» مع أن العنادي ملك من الملائكة كما تقدم.

34. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ينزل ربنا إلى السماء الدنيا)) مع أن النازل ملك كما سبق إثباته.

35. جاء في حديث الشفاعة ((فيأتي النبي صلى الله عليه وسلم -ربه، فيخر ساجدا قنر جمعة، ويقول الله عز وجل: ارفع رأسك وقل تسمع واشفع تشفع))³ فأسند فيه قول الجمل ((ارفع رأسك، وقل تسمع، واشفع تشفع)) إلى الله عز وجل، مع أن القائل هو حيريل، كما جاء بيانه في حديث آخر، يتكلم على نفس المشهد ((فأوحى الله إلى حيريل -عليه السلام- أن اذهب إلى محمد، فقل له: ارفع رأسك، سل تعط، واشفع تشفع))⁴.

وهذا يدل على أن الصحابة والملف الصالح مدركون لمعنى المصوص المتشابهة، عارفون بتأويلها المجازي، لأن اختلاف الروايات للمشهد الواحد،

¹ المرجع السابق والجوه 57-58

² تيماري-السدي- 180,4

³ رواه أبو يحيى وأحمد ورجلهم ثقات مجمع الزوائد 377-378

⁴ رواه أحمد ورجلهم رجال الصحيح المرجع السابق والجوه 376-377

يحدث عن أن الحديث روى بالمعنى، وأن بعضهم عر مثلاً ((يقال الله))
والآخر عر ((يقال جبريل)) وكلا التفسيرين صحيح، لأن المعنى واضح،
والمقصود ظاهر، وقد لفت القرآن الكريم من بذائته الأولى في مكة المكرمة
أنظار المسلمين، إلى أن المباشر للأفعال والقائم بها هم الملائكة للكرام
«فالمديرات أمراً»¹ سواء كان التعبير بصيغة الجمع أو بصيغة الأفراد.

والمدرک لعادة الاستعمال الشرعي، والمتنبه لأسلوبه في التعبير، تتجلى أمامه
معاني كثير من النصوص المتشابهة. فبدرک القائم بها، والمباشر لعملها فـ:

لا يجد إشكالا في فهم قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن ربي عز وجل أناني
الثلثة في أحسن صورة، فقال لي يا محمد، هل تدرى فيم يختصم الملائكة الأعلى،
فقلت: لا أعلم يا رب، قال:

فوضع كفيه بين كتفي، حتى وجدت برد أنامله في صدري، فتجلى لي ما بين
السما والأرض))² لأن عادة الاستعمال الشرعي في مثل هذه النصوص
تدل على أن الآتي ملك، والتقريظة اللفظية في الحديث ((فوضع كفيه بين كتفي))
تؤكد هذا، وتفسير أهل الظاهر لها بأنها يد الله تفسير بعيد، لأن يد الله عندهم
عظيمة تسع السماوات والأرض³، فكيف تنحصر فيما بين كتفي النبي -صلى
الله عليه وسلم- بخلاف يد الملائكة، فالملائكة لها قدرة التشكل والتعمل «فتمثل
لها بشراً سوياً».

وأغلب الظن أن هذا الملك هو جبريل -عليه السلام- لأن ليد جبريل -كما جاء
في الحديث الشريف- علاقة بالفتح والتجلي ((فيأخذ جبريل -عليه السلام-
بضبعيه -أي النبي -صلى الله عليه وسلم- فيفتح الله عز وجل عليه من الدعاء
شيئاً لم يفتح على بشر قبل))⁴ قاله في أحداث القيامة.

¹ ثلث عت 5 ومن المعنى التي تدل عليها هذه الآية أيضاً أن صفة التصريف لميز الله في هذا الكون لا
تدل على الشرك، لأن الكل يصرف بإذن الله ومشيئته، مهم خدم وجد له مجله وتعالى.

² أخرجه الطبراني والطيب ومحمد بن نصر الدر المتثور 353.5

³ عديم أن الأرض والسماوات في قصته يوم الدين لا تسوى حردلة نسطر كتاب التوحيد لأبي عبد
الزهة 139

⁴ رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه والزاو ورجالهم ثقافت مسند الإمام مع الفتح 125.24-126

وكذلك القول في قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله خلق آدم على صورته)) فعبادة الاستعمال ندرك أن القائم بالخلق من أهل السماء، وأصيف الفعل إلى الله لأنه الأمر، وبالقرينة اللفظية ((على صورته)) ندرك نوع هذا القائم، وأنه من صف الروح، فمن ابن عباس قال: الروح أمر من أمر الله، وخلق من خلق الله، وصورهم على صورة بني آدم¹. وعن مجاهد قال: الروح يأكلون، ولهم أيد وأرجل ورؤس، وليسوا بملائكة². ويكون معنى الحديث: إن روح الله خلق آدم على صورته.

وهذا للتأويل موافق لعادة الاستعمال الشرعي وطريقته في التعبير، وموافق لقاعدة ابن تيمية التي تقول: إن الألفاظ الواردة في القرآن بصيغة الجمع التي تتحدث عن تدبير الكون مثل: إنا نحن، نميت، نعلم، نكتب، نسمع، نكل على الله باعتباره الأمر، ونكل على الملائكة باعتبارها المباشرة للأفعال³، قال الله تعالى عن خلق آدم بصيغة الجمع: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾⁴ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾⁵، فأسند الله الخلق لنفسه باعتباره الأمر، وعبر بصيغة الجمع ليدل على مباشرة الروح للخلق، وهو ما تؤكد عادة الاستعمال الشرعي كما سبق بيانه.

والإضافة في قوله تعالى عن آدم: ﴿خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ للتعظيم، كقوله تعالى عن بيعة الرصون: ﴿يَدِ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾⁶ وكقوله: ﴿نَالَهُ اللَّهُ﴾⁷ ﴿بَيْتَ اللَّهِ﴾ لأن

¹ الدر المنثور 123,4

² المرجع السابق 344,6

³ سبق تقريرها

⁴ المؤمنون 12

⁵ الأعراف 10

⁶ ص 74

⁷ فتح 10

⁸ الشمس 13

القائم بالأمر في خلق آدم -عليه السلام- روح عظيم، عن عكرمة قال: الروح أعظم خلقاً من الملائكة¹.

وعن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: الروح في السماء السابعة، وهو أعظم من السماوات والجبال ومن الملائكة. وعن الضحاك قال: الروح حاجب الله².

وإضافة الخلق إلى غير الله معهودة في النص الديني:

- أخرج أحمد ومسلم والبيهقي في الأسماء والصفات عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بأنني هاتين، يقول: ((إن النطفة تقع في الرحم أربعين ليلة)).

وفي لفظ ((إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكاً، فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها))³.

فمنسب التصوير والخلق للملك باعتباره المباشر للفعل، ونسبه الله إلى نفسه باعتباره الأمر «فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة» «ولقد خلقناكم ثم صورناكم» «ولقد خلقنا الإنسان من نطفة» والتعبير بصيغة الجمع ((خلقناكم)) ((صورناكم)) يؤكد صحة القاعدة السابقة، وشمولية قوله تعالى «فالمدير» أمراً للخلق والتصوير.

- قال الله تعالى عن عيسى -عليه السلام-: «إني أخلق لكم من الطين كهيئة العنبر فأنفخ فيه فيكون طائرًا يابن الله»⁴.

- جاء في الحديث الشريف ((أرسل ربك عز وجل السماء بهضاب من عند العرش، فلعمر إلهك ما ندع على ظهرها من مصدع قتل، ولا مدفن ميت، إلا شقت القبر عنه، حتى تخلقه من عند رأسه، فيستوي جالساً))⁵.

¹ الدر 344,6

² المرجع السابق والجزء 373

³ الدر المنور 379,4

⁴ في سوان 48

⁵ رواه الطبراني وعنه الله وأحمد طبراني عبد الله لهدها متصل ورجالها ثقات مجمع الرواد 341,10

والخلاصة أن إسناد الخلق إلى الله إسناد مجازي باعتباره الأمر، وأن المقصود بالصورة في قوله ((على صورته)) هو الروح، ولا يجوز أن يعاد الصمير على الله، نقل الحافظ البيهقي عن الإمام أبي سليمان الخطابي أنه قال: إن الذي علينا وعلى كل مسلم أن يعلمه، أن ربنا ليس بذي صورة ولا هيئة، فإن الصورة تنفسي الكيفية، والكيفية منفية عن الله وعن صفاته¹.

وقال الإمام الشافعي: اعلموا أن الصور والتركيب تستحيل على الله تعالى للمعنى الذي ذكرنا في الجسم، ولأن ذا الصورة لا يختص بصورة دون صورة، إلا بمخصص هو فاعله وخالفه، ومن يكون له صورة أيضا مخلوق لا إشكال فيه، ولأن الصورة لا تشبه المصور، والله تعالى خالق كل شيء، وصورته «ليس كمثله شيء» وقال الله تعالى: «هو الله الخالق البارئ المصور»². ونقل البيهقي في مناقب أحمد، عن رئيس الحنابلة أبي الفضل التميمي أنه قال: أنكر أحمد على من قال بالجسم، وقال: إن الأسماء مأخوذة من الشريعة واللغة، وأهل اللغة وضعوا هذا الاسم على ذي طول وعرض وسطح وتركيب وصورة وتأليف، والله خرج عن ذلك كله³.

- ونفس القاعدة السابقة في الاستعمال الشرعي تترك:

أ. أن إسناد الفعل إلى الله في قوله تعالى: «وكتبناه في الألواح من كل شيء»⁴ إسناد مجازي باعتباره الأمر بالكتابة، وأن المباشر للكتابة هو المسؤول عن خلق آدم -عليه السلام- قال عكرمة: إن الله لم يمس شيئا إلا ثلاثة: خلق آدم بيده، وغرس الجنة بيده، وكتب التوراة بيده⁵.

ب. أن المباشر للعطي يوم القيامة ذلك من الملائكة في قوله «يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب»، وهذا العطي سيكون يوم القيامة، قال الله تعالى: «والأرض

¹ الأسماء والصفات 296

² اللغة الأكبر من 10

³ تكملة المفيد 90

⁴ الأعراف 145

⁵ ندر المنشور 3.

جميعاً فبسته يوم القيامة والسموات مطلوبات يمينه» وقال عن السعداء «لا يحزنهم المرح الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون يوم نطوى السماء كطوي السجل للكتابة» أي لا يحزنهم الفزع، وتلقاهم الملائكة يوم الطي، والأحاديث التي تحدد زمن الطي بأنه في آخر أيام الدنيا أحاديث ضعيفة.

وما قيل في هذه الآية يقال في الحديث الشريف ((يطوى الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده البعنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الخبارون؟ أين المتكبرون؟))¹ فالطاوي هو الملك، والضمير في ((يأخذهن بيده اليمى)) يعود على الطاوي، وقوله من باب التلبيع عن الله كما سبق بيانه أنفاً.

ج. أن القائم بالحمل ملك من الملائكة أو روح من الأرواح العلوية، فيما أخرجته سعيد بن منصور وأحمد وعد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر والدارقطني في الأسماء والصفات عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: جاء خبر من الأخبار إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا محمد، إنا نحد أن الله يحمل السموات يوم القيامة على أصبع، والأرضين على أصبع، والشجر على أصبع، والماء والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، فيقول: أنا الملك))² فصحك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى بدت نواجذه تصديفاً لقول الخبر، ثم قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- «وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته»³.

وجملة ((إن الله يحمل السموات)) مشابهة للجمال التي تقدمت في بيان القاعدة:

«الله يتوفى الأنفس حين موتها»

«إن الله جامع المنافقين والكفار في نار جهنم»

«إن الله عز وجل ينشئ السحاب»

((يقول الرب عز وجل لرفع رأسك))

«سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً»

¹ مسلم

² تقدم بيان أن الملك يقول هذا مجازاً عن الله

³ التر المنور 5 368

والتي تقدم التقليل على أن الإسناد فيها مجازي، وأن القائم بالفعل فيها والفعل هم الملائكة الكرام.

ولهذا جاء في العقيدة الطحاوية التي تعبر عن آراء السلف للإمام الطحاوي: «تعالى عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات»¹.

مما يدل على أن السلف -رضي الله عنهم- لم يفهموا من أمثال السفس المندوس أن الله أصبح أو أصبح.

قال الإمام الشافعي في كتابه الفقه الأكبر: «الباري تعالى ليس بشيء أحزاء وأبعاد، بل هو واحد، كما قال الله تعالى: «قل هو الله أحد» والمجتمع المضاف لا يكون واحداً»².

قال الإمام عبد القاهر السفاذي: «لجمع أهل السنة على إحالة وصفه بالصورة والأعضاء»³.

د. أن نسبة الإحاطة إلى الله في قوله تعالى: «والله محيط بالكافرين» نسبة مجازية، وأن القائم بها والموصوف بها حقيقة خلق من خلق الله وحده من حدوده، أخرج ابن أبي الدنيا في العقوبات وأبو الشَّيْب في العظمة عن ابن عباس قال: خلق الله جبلاً يقال له ((ق)) محيط بالعالم، وعروته إلى الصخرة التي عليها الأرمس، فإذا أراد الله أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل، فحرك العرق الذي على تلك الغربة، فیزلزلها ويحركها، فمن ثم نحرك الغربة دون الغربة»⁴.

هـ. أن نسبة الانتهاء إليه هي قوله تعالى: «إليه يصعد الكلم الطيب» «إني منوفيك ورافعت إلي» «بل رفعه الله إليه» نسبة مجازية، وسبأني تحقُّق وبيان لهذه النصوص في مبحث الاستواء.

¹ شرح العقيدة الطحاوية - الهروي - 163

² ص 10 نقلها عن كتاب ((عقيدة السلف والخلف)) لأن حجة عليوي وكتاب الإمام موحود في المكتبة الطاهرية دمشق تحت رقم ق-32

³ الفرق بين الفرق 320

⁴ قدر مشور 112,6

و. أن إسناد المجيء إليه في قوله تعالى: «وجاء ربك والملك صفا صفا» إسناد غير حقيقي، لأن عادة الاستعمال قلت على أن الآتي ملك جاء بأمر الله بدلالة القرينة المنفصلة، قال ابن حزم: روي عن الإمام أحمد في قوله تعالى: «وجاء ربك» إما معناه وجاء أمر ربك، كقولنا تعالى: «هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك» والقرآن يفسر بعضه بعضاً¹، قال ابن تيمية: ويجوز باتفاق المسلمين أن يفسر إحدى الآيتين بظاهر الأخرى، ويصرف الكلام عن ظاهره، إذ لا محذور في ذلك عند أحد من أهل السنة، وإن مسمى تأويله وصرفاً من الظاهر، فذلك لدلالة القرآن عليه ولموافقة السنة والسلف عليه، لأنه تفسير للقرآن بالقرآن، ليس تفسيراً له بالرأي، والمحذور إنما هو صرف القرآن عن فحواه بغير دلالة من الله ورسوله².

فيكون تفسير الآية «وجاء ربك» تم به:

1- بالقرينة المنفصلة «أو يأتي أمر ربك».

2- بعادة الاستعمال الشرعي في أمثال هذه المصوص، التي يسند فيها ما تقوم به الملائكة لله سبحانه باعتباره الأمر.

ومجيء الملك من المكان الذي تلقى فيه الوحي والأمر الرباني.

ز. أن الظاهر الحرفي في أثر ابن مسعود الآتي، والمتعلق بيوم القيامة غير مفصود ((يتسبب)) الله عز وجل ذكره للخلق، فيلغاهم، وليس أحد من الخلق يعبد من دون الله شيئاً إلا هو مرتفع له يتبعه، فيلغى اليهود، فيقول ما تعبدون، فيقولون عزير ثم يلغى النصراني، فيقول ما تعبدون...))³.

¹ تذكرة السيف المطول، 137-138

² مجموع الفتاوى 21، 6

³ مجمع الرواة 332، 10 واعتراض الحافظ الذهبي على هذا الأثر بأنه مخالف للحديث الصحيح في ترتيب التبعاء حيث جاء فيه ((أول شافع حنريث ثم إبراهيم ثم سيك - صلى الله عليه وسلم - ثم محمد - صلى الله عليه وسلم -))

- إمكانية تأويل العادة بأن من يتشفع به الخلق وينتجون إليه ويطلبون منه الشفاعة ويكون اسم تفاعل ((شافع)) بمعنى متشفع به، كقوله تعالى ((من ماء دافق)) أي مدفوق.

وفي حديث آخر عنه ((ويبقى محمد -صلى الله عليه وسلم- وأمته، فيتمثل الرب تبارك وتعالى فيأتيهم، فيقول: ما لكم لا تتطلقون كاتطلاق الناس، فيقولون: إن لنا إلهًا ما رأينا، فيقول: هل تعرفونه إن رأيتوه، فيقولون: إن بيننا وبينه علامة، إذا رأيناها عرفناها. فيقول: ما هي؟ فيقول: يكشف عن ساقه، فيخر كل من كان نظره، ويبقى قوم ظهورهم كصياصي البقر، يريدون المسجود فلا يستطيعون.))¹ ففي هذين الحديثين² أسند التمثل والتقاء القول لله باعتباره الأمر، والقائم والمباشر لها ملك بدلالة القرائن:

- فقله ((يبنى اليهود ويبنى النصارى)) قريبة لفظية تعبر عن أن الملاكى ملك، لأن الكفار يوم القيامة محجوبون «كأنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون»³ «يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمحرمين»⁴. والقرآن قد كبر أهل الكتاب، الذين يقولون بألوهية المسيح «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم»

- وقوله ((ويبقى محمد -صلى الله عليه وسلم- وأمته، فيتمثل الرب تبارك وتعالى، فيأتيهم، فيقول ما لكم لا تتطلقون.)) دليل على أن القائل ملك، لأن هذه الجملة ليست أول ما يقوله الله للمؤمنين، فمع معاذ بن جبل قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن شئتم أنبأتكم بأول ما يقول الله عز وجل

- أو تأويلها بأول شائع للخلق عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- توشع لهم عند ربه، ويؤيد هذا التأويل ما جاء في الحديث الشريف: ((إن حاشي عيسى فقال هذه الأنبياء قد جاشت بك يا محمد يشكون. أو قال: يشعرون إلهك ويدعون الله عز وجل أن يفرق جمع الأمم إلى حيث يشاء الله فيقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قمبيس انتظر حتى أرجع إليك، فذهب نبي الله -صلى الله عليه وسلم- حتى قام عند العرش. . رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح بسند الإسناد أحمد صحيح التلح - 124,24

¹ رواه الطبراني من طريق رجال أحدهما رجال رجال الصحيح غير الدالاني وهو ثقة صحيح الترويض

345-346

² الأثر الأول وإن كان موثقاً على ابن مسعود فإنه في حكم المرفوع، لأن مثل هذا لا يقال بأقرب

³ المطهر 15

⁴ الفرقان 22

للمؤمنين، وبأول ما يقولون له، قالوا نعم. قال: إن الله عز وجل يقول للمؤمنين: هل أحببتُم لِقائِي؟ فيقولون: نعم¹.

ومن القرآن المنفصلة التي تلقى ضوءاً على حديث ابن مسعود وعلى الإسناد المحاذي فيه حديثه ((ثم ينادي مناد: أيها الناس، ألم ترصوا من ربكم الذي خلقكم، ورزقكم، وأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، أن يوحي كل أناس ما كانوا يعبدون. فيطلق كل إلى ما كانوا يعبدون))² فأسند القول للمنادي، وهذه الأحاديث الثلاث جميعاً رواها ابن مسعود، مما يدل على روايتها له بالمعنى، وعلى وضوح معنى المتشابه عنده.

ومن القرآن الصارفة عن المعنى الظاهري في الحديث قوله ((يكشف عر ساقه)) الذي يدل على أن المتكلم ملكه لأن عادة الاستعمال الشرعي في الأفعال التي تتعلق بتكبير الكون أو يستندها الله لنفسه بأصباره الأمر، بالاربع من أن القائم بها ملك «فالمندبرات أمراً»، أخرج ابن المنذر عن ابن عباس، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم - لحبريل ليلة الإسراء: ((اكشف عن النار، فكشف عنها، فنظر إليها))³ فدل على أن من وظائف حبريل عليه الصلاة - الكشف وإيراز الشدائد.

والمساق - كما قال ابن عباس رضي الله عنهما - الكرب والشدّة⁴، واقتصر السجود به تطبيق لما اعتاده المسلمون في الدنيا من السجود، حين كانوا يرون العلامات المنذرة بنزول البلاء والمحن التي يخوف الله بها عباده ((إذا رأيتم أية فاسجنوا))⁵ وتفسير المساق هنا بأنها مساق الله يكشفها يوم الدين لا يصح، أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن سعيد بن جبير أنه سئل عن قوله: «يوم

¹ رواه الطبراني بسند حسن صحيح فروع 361، 10

² المرجع السابق 343، 10

³ الدر المنثور 357، 6-358

⁴ الدر المنثور 282، 6

⁵ لم داود مع قوله 62، 4 هذا التطبيق يوم الدين يحصل على حسب رواية قتادة بعد أن يردن لهم عيب
الدر المنثور 283، 6

يكشف عن ساق) فغضب غضبا شديدا، وقال: إن أقولما يزعمون أن الله يكشف عن ساقه، وإنما يكشف عن الأمر الشديد¹.

- ومن القرآن للتعزية في الحديث قوله ((فيتمثل الرب)) الذي يدل على أن القائم به ملك بأمر الله جاء في قصة جبريل مع مريم -عليهما السلام- ((فتمثل لها بشرا سويا)²

ح. وبعادة الاستعمال الشرعي في إسناد الأفعال التي تقوم بها الملائكة إلى الله باعتباره الأمر، ندرك أن الإسناد في الآية الآتية إسناد مجازي «يدبر الأمر من السماء إلى الأرض»³ وأن القائم بالتدبير الملائكة، قال الله تعالى: «فالمعديرات أمرا»⁴.

اعتراض ابن حجر

نقل ابن حجر في فتح الباري عن بعض العلماء استبعادهم أن يكون الصوت للملائكة في الحديث الشريف السابق الذي تقوم بدراسته ((يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب)) لمبينين:

1. السبب الأول أن قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الصوت: ((يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب)) إشارة إلى أن المحدث للصوت ليس من المخلوقات، لأنه لم يمهّد مثل هذا فيهم.

2. السبب الثاني أن الملائكة إذا سمعوا الصوت صرعوا، وإذا سمع بعضهم بعضا لم يصرعوا، وعليه فإن الصوت في الحديث صفة من صفات ذاته⁵...

ومضمون هذا الاعتراض أن الصوت الذي يحدث في الحشر، هو الذي يحدث إذا تكلم الله بالوحي، ومن آثار هذا الصوت كما جاء في الحديث صرع

¹ الدر 282,6

² مريم 16

³ السجدة 4

⁴ هاز عفت 5

⁵ 234,17

الملائكة، يقول الرسول -صلى الله عليه وسلم- ((إذا قصى الله الأمر في السماء صررت الملائكة بأحدها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان))¹ ولفظه عند ابن حزيمة وابن مردويه ((كمر السلسلة على الصفوان، فلا ينزل على أهل سماء إلا صمقوا))².
وهذا يدل على أن الصوت ليس صوت الملائكة، لأنه إذا سمع بعضهم بعضا لم يصمقوا وإنما هو لله الواحد القهار.

الجواب عن السبب الأول

1. ليس شرط ما يحدث في الأجرة أن يكون حدث من قبل، وعهد مثله في القاممين به فقد أخرج أبو داود والترمذي وحسنه وابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي في الدعث عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنف مشاء وصنف ركبأن وصنف على وجوههم)).
قيل: يا رسول الله، وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: ((إن الذي أمشاهم على أقدامهم قلدر على أن يمشيهم على وجوههم))³.
فالمشي على الوجوه لم يحدث للإيمان من قبل، ولم يعهد مثله، مع أنه سيكون وسبحدثه وكذلك أمر الصوت يحدث الله فيه ما يشاء فيزيد في الخلق ما يشاء⁴ وفي حديث الميت الذي يوضع على النعش ((يصيح صيحة لو سمعها النقال لصمقوا)) مع أن صوته في الدنيا لا يؤدي ولا يميت.
2. إن الأحاديث التي سبق تحليلها يؤخذ منها أن الصوت للملائكة فلا محال للإعتراض، لا سيما وأن القائم بالمهمة يمكن أن يكون هذا أول عمل يكلف به.

¹ المرجع السابق والجاء 235-236

² قدر المنور 224,4

³ فاطر 1

بقي أن يكون صاحب الصوت في الحشر هو صاحب الصوت الذي يحدث حين يتكلم الله بالوحي السماء، ففي رواية أبي داود: ((سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا)).

وفي حديث للنوامس بن سميان: ((إذا تكلم الله بالوحي أخذت السماوات منه رجفة)) أو قال: ((رجعة شديدة من خوف الله فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا له سجدا))¹.

أي أن الملائكة تصعق لسماع الرجفة التي تحدث في السماء، كما يصعق البشر حين يسمعون نفاخ الصور، أو لو سمعوا صيحة الميت على النعش. وهذا يدل على أن الأصوات العنيفة تحدث الصعق في المخلوقات، سواء كان المصعوق من أهل السماء أو أهل الأرض.



¹ انظر فتح الباري، 17، 233-234

فتاوى الأئمة في الصوت والحرف

- قال الصحابي الجليل علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: إن الله كلم موسى عليه السلام -بلا جوارح، ولا أنوف، ولا حروف، ولا شفة، ولا لهوات، سبحانه عن تكيف الصفات¹.
- قال الإمام أبو حنيفة -رضي الله عنه- في كتابه الفقه الأكبر: الله تعالى يتكلم بلا آلة ولا حرف، والحروف مخلوقة، وكلام الله تعالى غير مخلوق².
- يقول الجنيد -من أئمة التصوف-: جلّت ذاته عن الحدود، وجلّ كلامه عن الحروف، فلا حدّ لذاته، ولا حروف لكلامه³.
- والشيخ الجنيد إمام هدي كما قال ابن تيمية⁴.
- قال الإمام الأسفرايني في معرض ذكر عقيدة أهل السنة والجماعة: وأن تعلم أن كلام الله تعالى ليس بحرف ولا صوت، لأن الحرف والصوت يتضمنان جواز التقدم والتأخر، وذلك مستحيل على القديم سبحانه⁵.
- قال العلامة المحدث علي القاري في شرح الفقه الأكبر: ومبتدعة الحنابلة قالوا: كلامه حروف وأصوات، تقوم بذاته، وهو قديم . وهذا قول باطل بالضرورة ومكابرة للحس للإحساس بتقديم الباء على السين في بسم الله ونحوه⁶.
- سئل سلطان العلماء العز بن عبد السلام والإمام المجتهد أبو عمرو عثمان بن الحاجب المالكي⁷، والإمام علم الدين أبو الحسن علي بن محمد السجّادي عن

¹ الإصناف للعلاني 90

² الفقه الأكبر ص 51

³ الإصناف 90

⁴ مجموع الفتاوى 491،5

⁵ التصريح في الدين 102

⁶ شرح الفقه الأكبر 30-29

⁷ كلامهما بمنى تليد وأحد من شيوخ الصوفاة في القرن الثاني -رضي الله عنهم-

كلام الله للقديم القائم بذاته، هل يجوز أن يقال إنه عين صوت القارئ وحروفه المقطعة، وعين الأشكال التي يصورها الكاتب في المصحف؟ وهل يحوز أن يقال: إن كلام الله القديم القائم بذاته حروف وأصوات على المعنى الظاهر فيها، وأنه غير ما جعله الله معجزة لرسوله صلى الله عليه وسلم؟ وما الذي يجب على من اعتقد جميع ذلك وأذاعه وعرضه بصعفاء المسلمين؟ وهل يحل للعلماء المعبرين إذا علموا أن ذلك قد شاع أن يسكتوا عن بيان الحق في ذلك، وإظهاره والرد على من أظهر ذلك، واعتقده؟ أفنونا مأجورين.

جواب سلطان العلماء

القرآن كلام الله، صفة من صفاته، قديم بذاته، ليس بحروف ولا أصوات. ومن زعم أن الوصف القديم هو عين أصوات القارئ وكتابة الكاتبين فقد أُلحد في الدين، وخالف إجماع المسلمين، بل إجماع العقلاء من غير أهل الدين. ولا يحل للعلماء كتمان الحق، ولا ترك البدع سارية في المسلمين. ويجب على ولاة الأمور إعانة العلماء المزهين الموحدين، وفضع المبتدعة المشبهين المجسمين.

ومن زعم أن المعجزة^١ قديمة فقد جهل حقيقتها. ولا يحل لولاة الأمر تمكين أمثال هؤلاء من إفساد عقائد المسلمين، ويجب عليهم أن يلزمهم بتصحيح عقائدهم بمباحثة العلماء المعبرين، فإن لم يفعلوا ألحقوا إلى ذلك بالحبس والضرب والتعزير.

كتبه عبدالعزيز بن عبدالسلام

جواب الإمام ابن الحاجب

من زعم أن أصوات القارئ، وحروفه المنقطعة، والأشكال التي يصورها الكاتب في المصحف هي نفس كلام الله تعالى القديم، فقد ارتكب بدعة عظيمة، وخالف الضرورة، وسقطت مكانته في المناظرة فيه.

^١ أي المعجزة القرآنية

ولا يستقيم أن يقال: إن كلام الله تعالى القديم لا يتم به... هو - أي جماعه الله معجزة لـ. بوله - صلى الله عليه وسلم - فإن ذلك يعد بمعنى مصر .
 وإذا شاع ذلك، أو سدل عنه العمدة . وحب عليهم بيان الحق في ذلك وإظهاره .
 ويجب على من له الأمر . وفقه الله - أخذ من يعتقد ذلك، ويعر به ضسقاء المسلمين، وزجره، وفأنيبه، وحبسه عن مخالطة من يخاف منه إضلاله، إلى أن يظهر ثوبته عن اعتقاد مثل هذه الخرافات التي تأبأها العفول السليمة .
 والله أعلم

كتب عثمان بن أبي بكر الحاجب

ومعلوم أن كلا الإمامين العز وابن الحاجب ممن تتلمذ على يد شيخ الصوفية أبي الحسن الشاذلي،

جواب الإمام السخاوي:

كلام الله عز وجل قديم، صفة من صفاته، ليس بمخلوق، وأصوات القراء وحروف المصاحف أمر خارج عن ذلك...

والصفة القديمة القائمة بذاته سبحانه وتعالى ليست المعجزة (أي القرآن المتلو) لأن المعجزة ما تحدى به الرسول - صلى الله عليه وسلم - وطالب الاتيان بمثله، ومعلوم أنه لم يتحداهم بصفة الباري القديمة، ولا طالبهم بالإتيان بمثها .
 ومن اعتقد ذلك، وصرح به، أو دعا إليه، فهو ضال مبتدع، بل خارج عما عليه العقلاء إلى تخليط المجانين، والواجب على علماء المسلمين إذا ظهرت هذه البدعة إخمادها وتبيين الحق . والله أعلم

على السخاوي¹

وسئل علماء مصر عن فتنة الحشوية المعروفة بفتنة ابن مرزوق وابن الكيزاني في النصف الأخير من القرن السادس بمصر .

¹ تكملة السوء 46 - 8

وصورة الاستفتاء:

ما قولكم في الحشوية على مذهب ابن مرزوق وابن الكيزاني اللذين يعتقدان أن الله سبحانه يتكلم بحروف وصوت، تعالى الله عن ذلك، وأن أفعال العباد قديمة، هل تنفذ أحكامهم على أهل التوحيد وعامة المسلمين؟ وهل تقبل شهادتهم على المسلمين أم لا؟

الإجابة

جواب الإمام شهاب الدين أبي الفتح محمد بن محمود الطوسي الشافعي:
نقبل شهادة عدو لهم على أصحابهم، ولا نسمع شهادتهم على أهل الحق من الموحدين، ولا نقدر حكم قاضيههم على الموحدين، فإنهم أعداء الحق.
والله أعلم

كتبه محمد الطوسي

جواب الإمام يوسف الأرموي

ما نس عليهم أعلاه اقترفوا حوبة عظيمة، يجب عليهم القبول عما اعتقدوه.
كتبه يوسف الأرموي

جواب الإمام أبي منصور ظاهر الحسين الأزدی المالكي

لا نقبل شهادة من يقول إن الله تعالى يتكلم بحرف وصوت، لأنهم مرتكبون كبيرة، هي أعظم من سائر المعاصي كالزنا وشرب الخمر، لأنها كبيرة تتعلق بأصل من أصول الدين.

كتب ظاهر بن حسين الأزدی

وجواب شارح المذهب أبي إسحاق إبراهيم العراقي:

جوابي كذلك.

كتبه إبراهيم العراقي

جواب الخطيب محمد بن إبراهيم الحموي:

من قال إن الله متكلم بحرف وصوت، فقد قال قولا يلزم منه أن الله جسم، ومن قال إنه جسم فقد قال بحدوثه، ومن قال بحدوثه فقد كفر، والكافر لا تصح ولا تقبل شهادته.

والله أعلم

كتبه محمد بن إبراهيم الحموي^١

وهناك فتاوى أخرى كثيرة للأئمة الأحلاء يؤكدون فيه نكزه الله عن الحرف والصوت.



^١ هذه الإشارات وقعت لسمع فنان المشوية في النصف الأول من القرن السابع الهجري، وهي مدونة في
شمس المتهدى ورجم المحدثي "لقطر بن المعلم القرشي". تكملة السيف الصفول 49-51

مبحث الاستواء

عقيدة ابن تيمية

- يؤمن ابن تيمية بأن الله جالس على العرش بذاته، جلوساً دائماً لا يزول . جاء في فتاويه: حدث العطاء المرصيون وأولياؤه المقربون أن محمداً رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يجلسه ربه على العرش معه¹. وقال في كتابه، "حديث النزول": والقول الثالث وهو الصواب، وهو المأثور عن سلف الأمة وأئمتها؛ أنه لا يزال فوق العرش، ولا يخلو العرش منه، مع دونه ونزوله إلى السماء الدنيا، ولا يكون العرش فوقه²... وأن استواءه على العرش بذاته³.
- والمقصود بالاستواء الجلوس والإستقرار⁴، وهذا المقصود هو الذي يفهمه العلمة حين يسمعون لفظ الاستواء، قال يزيد بن هارون الوسطي: إن من قال الرحمن على العرش استوى خلاف ما تقرر في نفوس العامة فهو جهمي⁵.
- وبصرح بأن هذه العقيدة قد تضافت النصوص الدينية من القرآن الكريم والسنة النبوية على إثباتها:
- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَشْأَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾⁶.

¹ مجموع الفتاوى 374،4

² ص 66

³ مجموع الفتاوى 182،5

⁴ كما قال تعالى فاستسوا على ظهوره

⁵ مجموع الفتاوى 148،5

⁶ الأعراف 53

- قال الله تعالى: «تعرّج الملائكة والروح إليه»¹.
- قال الله تعالى: «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه»².
- قال الله تعالى: «إني متوفيك ورافعتك إلي»³.
- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ((يُعرّج للذين باتوا بكم إلى ربهم، فيمأئهم -وهو أعلم بهم-))⁴.
- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ينزل ربنا إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل))⁵.
- وأحاديث المعراج تؤكد هذه العقيدة وتدل عليها.

التفوييم

للمصوص القرآنية المتعلقة بالاستواء .

ظاهر السياق في المصوص القرآنية المتعلقة بالاستواء يدل على عدم صلاحية تفسير الاستواء بالحلوس والاستقرار.

والسياق إحدى الوسائل التي تكون سببا في ظهور المعنى، يقول ابن تيمية في الغنى الدمشقية: ظهور المعنى يكون بالوضع اللغوي أو العرفي أو الشرعي أو سياق الكلام الذي يعين أحد احتمالات اللفظ، أو يبين أن المراد به هو مجازة⁶.

- ومعنى السياق أن تنظر إلى ما قبل الآية وإلى ما بعدها، أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن

¹ المعارج 4

² فاطر 10

³ آل صرئ 54

⁴ انظر مسند الإمام أحمد -الفتح- 19,20-20

⁵ مسلم . محشوع الفتوى 61,5

⁶ شرح توبة بن القيم 131

ابن عباس في تفسير قوله تعالى: «وسع كرسيه السموات والأرض»¹ قال: كرسيه علمه، ألا ترى إلى قوله: «ولا يؤده حفظهما»²، فحدد معنى الكرسي، واستعان في تحديده بالجملة التي بعده.

وسئل علي بن المديني عن المعية في قوله تعالى: «ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا»³.

فقال: اقرأ ما قبله «ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض»⁴ فحدد معنى المعية بأنها معية علم استعانة بالجملة التي قبلها .

نطبق هذه القاعدة على النص الكريم

المثال الأول

قال الله تعالى: «إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يفتي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين»⁵

هذا النص ورد بعد نص التأكيد ليوم القياسة «فاليوم ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا»⁶ يؤكد قدرة الله على البعث والإحياء وكمال علمه، ويذكر الدلائل الدالة على ذلك:

الجملة «خلق السموات والأرض» التي وقعت قبل النص المدروس «ثم استوى على العرش» تدل على قدرة الله التي لا يعجزها شيء، وعلى كمال علمه وإبداعه.

¹ البقرة 253

² قدر المستور 337، 1

³ المجادلة 7

⁴ مجموع الفتاوى 5 / 140

⁵ الأعراب 93

- جملة « يغشى الليل والنهار » والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره » التي وقعت بعد النص المدروس تدل كل واحدة منهما على ما تدل عليه الآية الأولى.

وإذا كان الأمر كذلك وحسب أن تكون دلالة جملة « ثم استوى على العرش » على ما تدل عليه باقي الجمل، وهو كمال القدرة والعلم، لأنها لو لم تدل عليه، وفسرت بالجلوس والاستقرار، لكأنت كلاماً أجيباً ولها في غير محله، مبنوياً عما قبله وما بعده، لعدم دلالة على القدرة، وإيجانه بالمعجز والإعياء.¹

المثال الثاني

قال الله تعالى: « مسح الله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير هو الأول والأخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها »²

ظاهر السياق في هذه الآيات يدل على عدم صلاحية تفسير الاستواء بالجلوس والاستقرار، لأن كل جملة في النص جاءت في معرض البيان والتعليل لاتجاه الكون كله لله سبحانه وتعالى: تسبيحاً، وتمجيداً، وتعبداً:

- فجملة « وهو العزيز الحكيم » التي تعبر عن أنه القوي الذي لا يغلب، صاحب العلم الذي لا يخطئ، سبب من أسباب اتجاه من في الكون لله، لأن العزيز الحكيم ملجأ للمستضعفين، وأمل للمقهورين.

- وجملة « له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت » تؤذن بما تؤذن به الجملة الأولى، لأن الحصوع سببه الرخاء في فضله أو الخوف من عقابه، وملكه

¹ انظر تفسير الرزى 228، 4

² الحديد 4-1

للحزائن والإحياء، يعبر عن الرجاء فيه، وانفراده بالاعدام والإماتة يدل على الخوف منه.

وجملة «هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام» تدل على ما تدل عليه الجملة الأولى والثانية من التعليل بانفراده تعالى بصفة الإلهية وصفة الاتجاه إليه والخضوع¹.

ولو حسرنا الاستواء في قوله «ثم استوى على العرش» بالجلوس والاستقرار لكان تفسيراً غير مناسب للسباق، لأن الجلوس لا يعتبر سبباً من أسباب إفراد الله بصفة الخضوع، ولا هو من الدوافع التي تدفع من في الكون إلى الاتجاه إلى الله، فالمسألة ميان بين أن يكون الإله جالسا أو غير جالس.

فظهر أن تفسير الاستواء بالجلوس لا يناسب السباق، والسباق كما سبق - إحدى التوسائل التي تكون سبباً في ظهور المعنى.

وهذا ما دفع الأشاعرة بما فهمه العارفون من الصوفية المبتدئين إلى عدم الإيمان بوجود مكان له سبحانه، لعدم ما يدل عليه. وإلى تأويل هذه الآية أو التسليم وعدم الخوض فيها.

وهم في تأويلهم مستندون لظاهر السباق، وإلى تفسيرات السلف الصالح:

قال جابر بن زيد: سئل ابن عباس عن قوله تعالى: «الرحمن على العرش استوى»؟

فقال: ارتفع ذكره وتنازه على خلقه، لا على ما قال المنددون أن له أشباهاً وأنداداً، تعالى الله عن ذلك.

وعن مجاهد عن عبدالله بن عمر أنه سئل عن الصخرة التي كانت في بيت المقدس، فقال له: إن ناساً يقولون، فنذكر قولهم سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً - فارتعد ابن عمر: فرقا وشلقا حين وصفوه بالحدود والانتقال، فقال ابن عمر: إن الله أعظم وأجل أن يوصف بصفات المخلوقين، هذا كلام اليهود

¹ انظر تفسير التحرير والتنوير 356، 362

أعداء الله إنما يقول: «الرحمن على العرش استوى» أي استوى أمره وقدرته فوق برئته.

- وقال الحسن البصري: قوله «ثم استوى على العرش» يعني استوى أمره وقدرته ولطفه فوق خلقه، ولا يوصف الله بصفات الخلق، ولا يقع عليه الوصف كما يقع على الخلق.

- قال الربيع بن حبيب: بلغني عن ابن مسعود والضحاك بن مزاحم أنهما قالَا: «استوى على العرش» استولى¹ عليه وعلى الأشياء كلها، فخفضت ودانست، وقد تقول العرب: استوت فلان دنياه، أي أقتته دنياه على ما يريد، واستوى بشر على العراق والحجاز، واستوى لنا الأمر، واستوى فلان على مال فلان، يريدون أنه احتوى عليه وحازاه ونحو ذلك. وجوابنا في قوله تعالى: «الرحمن على العرش استوى» ما قاله عبدالله ابن عباس، وابن عمر، والحسن، ومجاهد أنه ارتفع ذكره وشأنه ومجده وعظمته.

تعالى عما قال المنددون أن له أندادا وأتباعا، تعالى الله عن ذلك.

وأن ابن عمر في حديث الصخرة ارتعد فرقا وشقفا حين وصف الله بالزوال والانتقال، وقال: هذا كلام اليهود أعداء الله. قالوا: إنه لما فرغ من خلق السموات والأرض، استوى على العرش، ووضع إحدى يديه على الأخرى، واستراح، فكذبهم الله بقوله «وما منا من كفوب» ويقول: «ليس كمثله شيء»².

ويلاحظ في تفسيرات السلف لهذا النص «ثم استوى على العرش»:-

1. أنها تدور حول كمال القدرة والعلم، فارتفاع الذكر مسببه كمال القدرة والتصريف، واتساع العلم والإحاطة.

2. أن العرب تعرف الاستواء بمعنى الاستيلاء، وتسلم بأن الاستيلاء على الأشياء قد يحدث بدون مغالبة، فيقولون «استوى فلان على مال فلان» بدل عندهم على الاحتواء والحيزة، والاحتواء والحيزة قد يحدثان بلا منازعة، ويرى ابن

¹ سبأ بن نويرة هذا المعنى

² مسند الجمع الصحيح لتمام الربيع بن حبيب بن عمر الأزد البصري أحد السبعة 36، 3 و 39-40

يقال عن كفاف ابن تيمية ليس ملحقا بالجمع منصور عريش.

تيمية أن معنى الاحتواء هو الاستيلاء، وأنه -أي الاحتواء- يجوز وصف الله به، يقول في فتاويه مطلقا ومسلما بقول ابن أبي زيد القيرواني في رسالته 'على العرش استوى وعلى الملك احتوى: 'هراق بين الاستواء والاستيلاء على قاعدة الأئمة المتنوعين¹.

يعنى بقوله هذا، أن الفعل الأول 'استوى' يدل على غير ما يدل عليه الفعل الثاني 'احتوى' فالفعل الأول يدل عنده على الاستواء الظاهر على العرش -أي الجلوس عليه- والفعل الثاني يدل على الاستيلاء على الملك، فمصدر معنى الجملة الثانية: استولى الله على الملك.

وتحليله هذا يؤدي به إلى مناقضة نفسه، لأنه قال قبل قوله هذا بثلاث وأربعين صفحة: لا يجوز استوى بمعنى استولى إلا في حق من كان عاجزا ثم طهر، والله سبحانه لا يعجزه شيء، والعرش لا يغال به في حال، فاستمتع أن يكون بمعنى استولى².

وما منعه ابن تيمية لا يستمتع، لأننا عرفنا من قبل حين تتبعنا أسلوب التعبير القرآني، وعادته في الاستعمال أن أفعال التعبير في الكون -والاستواء منها- تقوم بها وتباشرها الملائكة والأرواح العلوية «فالمديونات أمراء» والملك حسين يتعامل مع الأنبياء قد يواجه بالمقاومة وعدم الانقياد، وقصة سيدنا موسى -عليه السلام- مع ملك الموت حين لطمه على عنقه فأخسرها غير بعيدة عنا³. وقصة الأرض مع عزرائيل كذلك، حين كلف بتجميع التراب الذي سيخلق منه آدم، فاستعانت بالله، فأخذه قهرا عنها.

3. أن السلف الصالح يفتد بالعلو طو الصفة لا علو الذات، ولهذا فما ورد سابقا عن مجاهد أن الله علا بقدرته، يعسر ما ورد عنه مطلقا في البخاري في تفسير قوله تعالى: «الرحمن على العرش استوى» بأن معناه علا.

¹ مجموع الفتاوى 189،5

² المرجع السابق والتج 146

³ مسند الإمام أحمد -فتح- 103،20

وتفسير العلو علو القدرة لا الذات الذي نقله الإمام الربيع هو الذي قال به ابن جرير الطبري الذي يسلّم له ابن نعيمه بكل ما في تفسيره:

قال ابن جرير: وكذلك قال: علا عليها علو ملك وسلطان لا علو انتقال وروا¹.

وقال في تفسير قوله تعالى: «وهو العلي العظيم»: يعني والله العلي، والعلوي الغليل، من قولك علا يعلو علوا، إذا ارتفع، فهو عال، وعليه والعلوي ذو العلو والارتفاع على خلقه بقدرة².

وتفسير العلو بالعلو المعنوي لا الحسي هو الذي يليق بجلال الله لـ:

أ. أنه لا شأن ولا شرف في علو المكان، إنما الشأن في علو القدر، فكم من خادم وحارس يكون جالسا على المطبخ لتأدية بعض مأموراته، وسيد حائس تحته في الأسفل على عرشه، «وله المثل الأعلى في السماوات والأرض» والأعلى هنا هو العلو المعنوي.

ب. أن العلو المعنوي -كمال القدرة- يدل على الأفراد والتميز عن الأنداد، بخلاف العلو الحسي، فتشاركه فيه بعض المخلوقات، وهو اللوح المحفوظ على ما جاء في الحديث الشريف ((لما قضى الله الخلق كتب كتابا عنده، غلبت أو قال: سبقت رحماني غضبي، فهو عنده فوق العرش))³.

وهذا الحديث يدل -كما قال ابن حجر- على أن اللوح المحفوظ فوق العرش⁴. ولا يصح تأويل كلمة «توق» الواردة في الحديث بأن المقصود بها «دون» لما جاء في رواية ابن حبان «وهو مرفوع فوق العرش» التي صرحنا بالرفع، وكذلك رواية النسائي. فهو عنده على العرش⁵.

¹ تفسير ابن جرير 192، 1

² المرجع السابق 9، 3

³ البخاري -الفتح- 310، 17

⁴ فتح الباري 310، 17

⁵ المعتمد نسبة للمحدث الهروي 202

ج. أن العلو المعنوي يدل على اتصاف الله بصفة العلو أولاً، بخلاف العلو الحسي - علو ذاته على العرش - فيعبر عن أنه لم يكن موصوفاً بهذا الوصف قبل أن يخلق العرش، لعدم وجود مكان في الأزل، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((كان الله ولم يكن شيء غيره))¹

وقد أجمع السلف على أن صفات الله قديمة غير محدثة

وبناء على ما سبق نستطيع أن نقول إن لفظ العلو لا يقتضى علو الذات على العرش، يقول ابن تيمية: فإن كان لفظ العلو لا يقتضى علو ذاته فوق العرش، لم يلزم أن يكون على العرش، وحينئذ فلفظ النزول ونحوه يتناول قطعاً، إذ ليس هناك شيء يتصور منه النزول².

مقارنة بين تحليل ابن تيمية للنص³ وتحليل الأشاعرة

1. تفسير الأشاعرة الذي يراعي السياق، يتناسب مع الحصر القرآني للمتشابه⁴ «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم»⁵

لاحتياجه إلى النظرة الكلية للنص، وثوقه على فهم العلاقات بين الجمل .
بينما تفسير ابن تيمية يخالف هذا الحصر، لتمكن العامة من تأويله، بسبب عدم احتياج لتأويل فيه إلا إلى السطر الحزني والمعنى الحرفي لكلمة استوى، الذي يحدده أي قاموس مدرسي .

2. تفسير ابن تيمية فيه تفريق للجمل، وتصييع للوحدة الكلية للنص، لاقتصاره في التحليل على دراسة جملة واحدة منه ((ثم استوى على العرش)) والإعراض عما سواها.

¹ الحديث في البخاري وقد نظم تكملة وذكر فرد على ابن تيمية في تأويله. هراجه في سبوت الصوت.

² مجموع الفتاوى 579، 6

³ أي نص أية الاستواء

⁴ قال الإمام الشافعي : هذه الآية [ثم استوى على العرش] من التشابه . فلفظ الأكثر من 17

⁵ في عمران 7

بينما تفسير الأشاعرة يستوجب الالتفات عند التحليل إلى أول الكلام وآخره، وما اقتضاه الحال، لا ينظر الباحث في أوله دون آخره، ولا في آخره دون أوله، حتى يتبين له المراد، يقول ابن تيمية: التأويل المقبول هو ما دل على مراد المتكلم¹.

3. تحليل ابن تيمية ينهدنا إلى القصور في المنهج الذي اتبعه هو وأتباعه الأقدمون، الذين جمعوا هذا، النصوص مبتورة من سياقها في كتب وفتاوى للإيهاء بأن المقصود بها الحقيقة والظاهر.

يقول الإمام الغزالي -من الأشاعرة- في كتابه "إلجام العوام عن علم الكلام" عن النص المتشابه: لا يفرق بين مجتمعه، فإن كل كلمة سابقة على كلمة أو لاحقة لها مؤثرة في تفهيم معنا، مطلقاً².

4. عمق التحليل عند الأشاعرة، يدلنا على صحة تفسيرهم لمصطلح التأويل بأنه صرف للفظ عن ظاهر، الحرفي المعروف عند الناس، بينما النتيجة غير الصحيحة لتحليل ابن تيمية للنص المدروس، تدلنا على عدم صحة تفسير، لهذا المصطلح بأنه الأخذ بالظاهر الحرفي الذي يفهمه العامة من اللفظ.

5. تفسير الأشاعرة، الناتج عن النظر، الكلية والتنمير في النص، يفتح الباب لاتجاهين في تحليل نص "ثم استوى على العرش"³:

أ. الاتجا، الأول يقتصر على الفهم العام للجملة، وهي أنها تدل على كمال الفخر، والعلم بدون تحديد بدلالة خاصة للجملة. أي بدون تأويلها بأنها تدل على صفة الملك، أو أنها تعبر عن الاستيلاء أو غير.

وهذا الاختصار يدخل في دائرة التفويض -أي تفويض المعنى الخاص المقصود من الجملة إلى الله-

والتفويض الذي لا يحدد معنى الجملة الخاص، ويقتصر على الفهم العام لا يعارض التفسير⁴، بل هو ناتج من نتائج، لأنه مأخوذ من دراسة السياق،

¹ درء التعارض 201، 1

² ص 76

³ أي بعد قراءة النص الديني "فعلًا يتكبرون اقرأ"

والتأمل فيه، مقرونا بخشية الله من الاتحاد في أسمائه وصفاته، بأن يدخل فيها ما ليس مدها، أو يضيف إليها ما هو خارج عنها "لأن ما يتعلق بالله وصفاته شيء وراء العقل، لا يمكن أن يصل إليه الإنسان إلا بأن يقيس الله على نفسه، وذلك خطأ كبير"¹ ومخالفة صريحة لقوله تعالى: «ليس كمثله شيء»

ب. تحديد المعنى الخاص لجملة "استوى على العرش"
استعانة بالجميل التي بعد النص في آية الأعراف «يفشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والنور والنجوم أسفرت بأمره» التي تتحدث عن الأمر الإلهي للكون والقهر له، والأمر والقهر من لوازم الملك، فيكون المقصود بجملة «ثم استوى على العرش» صفة الملك على سبيل الاستعارة التمثيلية والمجاز المركب².
قال الشاعر:

فلما علونا واستوينا عليهم
تركناهم صرعى لئسرك وكاسر³

وسواء قلنا بالاتجاه الأول أو الثاني، فالمعنى العام المفهوم من الجملة معلوم عند الجميع، وهو الصرف عن الظاهر الحرفي للفظ «استوى» والتفسير به عن كمال القدرة.

ولهذا لما سئل الإمام مالك عن قوله تعالى: «الرحمن على العرش استوى» كيف استوى؟ قال: الاستواء غير محوّل⁴.

أي معنى الاستواء في الآية معلوم عند أهل اللسان الفاهمين لأسرار العربية. وابن تيمية يفسر قول الإمام بأن المقصود منه الجلوس، لأنه المعنى المعلوم عند العامة.

¹ معنى الإسلام 193

² الجواز المركب الإطلاقي به باقية على معانيها اللغوية، وتتجاوز حاصل في معنى الهيئة التركيبية لا في معادتها، فكذلك المتردد: "أناك غلام رجلا ونحوه لغوي" وإن لم يحدث منه تقديم وتأخير للرجل. وجاء في المصباح: "استوى على مرور الملك" كناية عن التسلق والى ثم يعني: حادة سوى

³ البحر المحيط 291

⁴ دقائق الإشارات في معاني الأسماء والصفات للأصمعي 311

وتفسيره ينزل بالإمام إلى مستوى العامة الذين لا يركون دلالات الصيق ويمكن أن يكون المقصود بقول الإمام " والاستواء معلوم " أي معلوم معناه عند السلف، والصاف-كما سبق- يفسرونه بما يدل على كمال القدرة والعلم والبر والثناء، لا على الخلو والامتنان الذي قد يوحى بالعجز والإعلاء .

وتمام جواب الإمام مالك " والكيف غير معقول " أي كيف صفة الملك أو التمجيد أو غيرها غير معقول، لأن للكلام في الصفات فرع للكلام في الذات، والذات الإلهية لا كيف لها. ولهذا جاء في بعض الروايات عن الإمام، " ولا يقال كيف وكيف عنه مرفوع¹، قال سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه - حتى سألته اليهود عن كيفية الله : . . بل هو بلا كيف² .

فالذات والصفة الإلهية ليس لها كيف أصلاً، خلاف ما يقول ابن تيمية من أن الاستواء صفة الذات، وكيفيته محذولة، تعالى الله عما يقول:

قال الصحابي الجليل - علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: سبحانه وتعالى عن تكيف الصفات³.

قال الحافظ ابن الحوزي رضي الله عنه - في كتابه دفع شبه التشبيه ص 41-55: وأما ما نسب إلى الثوري، ومالك، وابن عيينة، والحماد، وأحمد، وإسحاق، وغيرهم من أنهم ينقولون على أن الله فوق العرش بذاته، فهو على فرض ثبوته عندهم، لا يستلزم أن الله مكاناً، تعالى الله عن ذلك، فإن معناه أنه تعالى عالي الرتبة والمكانة، مستحق ذلك بذاته لا بعينه؛ من كثرة الأموال والحدود كغرفية المخلوقات، وما قاله الحافظ متوافق مع تأويلات ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم التي سبق ذكرها.

6. تأويل ابن تيمية بأن الله لا يزال على العرش، ولا يخلو منه العرش، يتعارض مع منهجه في التأويل الذي يدعو إلى الأخذ بالظاهر، جاء في الحديث الشريف

¹ المرجع السابق والصحة

² حنية الأولياء 72، 1

³ المرجع السابق

الذي يتحدث عن آخر أيام الدنيا بعد موت الملائكة : "وأصبح ربك عز وجل يطيف في الأرض، وخلت عليه ليلاد"¹ الذي يدل على حسب منهج ابن تيمية على وجود الله في الأرض وعلى حلو العرش منه. فهو بين خيارين : إما أن يصل على عقيدته بأنه لا يخلو منه العرش فيعارض مع الحديث الشريف، أو يؤوله فيعارض مع منهجه .

7. تفسير ابن تيمية للاستواء بالاستقرار والحلوس يخالف به معتقدات السلف الصالح الذين يؤمنون بأنه ليس على مكان:

- قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: كان الله ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان .

- قال جعفر الصادق : من زعم أن الله في شيء، أو من شيء، أو على شيء، فقد أشرك، إذ لو كان على شيء لكان محمولاً، ولو كان في شيء لكان محصوراً، ولو كان من شيء لكان محدثاً² .

- قال الإمام أبو حنيفة: نقر بأن الله تعالى على العرش استوى، من غير أن يكون له حاجة واستقرار عليه³ .

- قال الإمام الشافعي في كتابه الفقه الأكبر: اهلوا أن يباري لا مكان له، والدليل عليه، هو أن الله تعالى كان ولا مكان، فخلق المكان، وهو على صفته الأزلية كما كان قبل خلق المكان، لا يحوز عليه التعبير في ذاته والتبديل في صفاته، ولأن ماله مكان، وله تحت، متناهي الذات محدود، والمحدود مخلوق، تعالى الله عن ذلك⁴ .

- قال الإمام الحافظ ابن أبي شيبة: والذي يحب أن يعتقد في ذلك أن الله كان ولا شيء معه، ثم خلق المخلوقات من العرش إلى العرش، فلم يتعين بها، ولا حدث

¹ رواه عبد الله والطبراني بسنده، وأحد طريقتي عبد الله إسناداً متصل ورجالها ثقات مجمع الزوائد

341-343

² الرسالة القشيرية 6

³ هذه عقيدة السلف 22-23

⁴ من 17

له جهة منها، ولا كان له مكان فيها، فإنه لا يحول ولا يزول، وقُدوس لا يتغير ولا يستحيل¹.

- قال الإمام أبو منصور، المحدث الفقيه الذي وصفه ابن حجر بأنه الإمام الكبير، إمام أصحابنا الشافعية؛ وأجمع أصحابنا على أحالة القول بأنه في مكان، أو في كل مكان².

- قال الإمام القرطبي - من أئمة المالكية - في كتابه التذكار ص 208: ورد الإمام مالك بن أنس - رضي الله عنه - على القائلين بالجهة مبسوط في العواصم عن القواصم لابن العربي .

- وجاء في كتاب المنهاج القويم شرح ابن حجر الهيتمي على المقدمة للحضرمية ص 224 : واعلم أن القرافي وغيره حكوا عن الشافعي ومالك وأحمد وأبي حنيفة - رضي الله عنهم - القول بكفر القائلين بالجهة .

وقد ذكر المحدث المشهور ملا علي القاري أن الملق والخلق انتفوا على أن من اعتقد أن الله في جهة فهو كافر، كما صرح به العراقي وبه قال أبو حنيفة ومالك والشافعي وأبو الحسن الأشعري والباقلاني³.

- قال الإمام القرطبي في تفسيره: ووصفه بالعلو والعظمة، لا بالأماكن والجهات والحدود، لأنها صفات الأجسام، وإنما ترفع الأيدي بالدعاء إلى السماء، لأن السماء مهيبة الوحي، ومزلة القطر، محل القدس⁴ كما حمل الله الكعبة قبلة للدعاء والصلاة، ولأنه خلق الأمكنة وهو غير محتاج إليها، وكان في لزه قبل خلق المكان والزمان، ولا مكان له ولا زمان، وهو الآن على ما عليه كان⁵ وكلامه - رضي الله عنه - هنا صريح في نفي الجهة والمكان عن الله وفي تأويل الفوقية والعلو بأنه علو العظمة وكمال القدرة، ولهذا فما ورد عنه في

¹ المارصة 232,2

² المقصد الطحاوي - الهرري - 171

³ مفا عن كتاب الوهية في العراء ص 9

⁴ شرح المشكاة 300,3

⁵ الجوسع لأحكام القرآن 216,18

تفسير سورة الأعراف بأن الله نطق في كتابه بوثبت الجهة سبق قلم، لأنه لم يرد لفظ الجهة في كتاب الله، ولا ثبت في عبارات السلف . وما ثبت عنه وعندهم هو إثبات لفظ الفوقية، والفوقية عنده وعندهم فوقية معنوية كما سبق .

فالعلامة المحدث الكوثري : لم يقع ذكر الجهة في حق الله سبحانه في كتاب الله، ولا في سنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - ولا في لفظ صحابي أو تابعي ولا في كلام أحد ممن تكلم في ذات الله وصفته من الفرق سوى أصحاب المجسمة، وأتحدى من يدعي خلاف ذلك، أن يسند هذا اللفظ إلى أحد منهم بسند صحيح، فلي يجد إلى ذلك سيلاً، فصلاً عن أن يتمكن من إسناده إلى الجمهور بأسانييد صحيحة¹.



¹ تكملة السبب الصغير 115-116

الدليل الثاني

من الأدلة التي استدل بها ابن تيمية على أن الله على العرش قوله تعالى: «أأنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور أم أأنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستظنون كيف نذير»¹

التقويم

(1) هذا النص مساو للحديث الشريف ((ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء))² في التعبير والدلالة على المتحدث عنه.

ففي التعبير عر كل منهما بلفظ "في" التي تدل على الظرفية.

وفي الدلالة دل كل منهما على المتحدث عنه بواسطة "من" الموصولة الموضوعة للعاقل، وعلى مكان وجوده وهو السماء فعبارة "من في السماء" في الآية والحديث متحدة في التعبير والمضمون.

وقد جاء بيان الشخص المتحدث عنه، المعبر عنه "بمن" في حديث ((يرحمكم من في السماء)) فيما رواه أحمد أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الراحمون يرحمهم الرحيم، لرحموا أهل الأرض، يرحمكم أهل السماء))³ أي الملائكة بالدعاء والاستغفار والشفاعة والنجدة والإنقاذ.

ولما كان التعبير في الآية والحديث متحدا -كما سبق بيانه- كان هذا دليلا على أن المقصود "بمن في السماء" في الآية للكرامة هم الملائكة أو الأرواح العلوية، يخوف الله بهما عباده العاصين:

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة عن ابن مابط -رضي الله عنه-: وكل جبريل -عليه السلام- بالهالك، إذا أراد أن يهلك قوما كان صاحب ذلك، ووكل أيضا بالنصر في الحروب، إذا أراد الله أن ينصر⁴.

¹ الملوك 16-17

² حديث صحيح الجامع الصغير -الناوي- 141,1

³ مسند الإمام أحمد 2، 160

⁴ الدر المنثور 6، 19

• وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن الضحاك قال: الروح أعظم الملائكة، لو فسح فاء لوسع جميع الملائكة، والخلق إليه ينظرون، فمن مخافته لا يرفعون طرفهم إلى من فوقهم¹، قال الله تعالى: «يخافون ربهم من فوقهم» أي يخافون حده وعده الذي هو فوقهم، وأسند الله لنفسه الخوف باعتباره الخالق والمعد والمكلف له.

• وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله «فطمسنا أعينهم»² قال: ذكر لنا أن جبريل استأذن ربه في عقوبتهم ليلة لوطا، وأنهم عاجلوا الباب ليدخلوا عليهم، فصعقهم بجناحه، فتركهم عيانا يترددون³.

• وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن حنيفة بن البستان في قصة هلاك لوط «استأذن جبريل - عليه السلام - في هلاكهم، فأذن له، فاحتل الأرض التي كانوا عليها، وأهوى بها ثم قلبها بهم»⁴ ومسكن جبريل والروح في السماء.

(2) علمنا من قبل حين تنبأ أسلوب التعبير القرآني، أن مباشرة الأفعال في تدبير هذا الكون قولا وعطاء وأخذا وعذابا وانتقاما موكولة إلى الملائكة الكرام «فالمندبرات أمرا»⁵ والخسف والارسل منها، وظاهر الآية يتكلم عن المباشرة للفعل 'يخسف يرسل' وهو ما تدل عليه قاعدة ابن تيمية في تأويل النصوص التي تقول: إن الأفعال التي جاءت بصيغة الجمع تدل على الله باعتباره الأمر، وتدل على الملائكة باعتبارها المباشر للفعل⁶ «وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل»⁷ وقد أثبتنا من قبل أن هذه القاعدة لا تختص بصيغ الجمع.

¹ الدر المنثور 344,6

² الدر

³ الدر المنثور في التفسير بالمأثور 151,6

⁴ الدر المنثور 373,3

⁵ سورة هود 5

⁶ تخست

⁷ الحجر 74

(3) مما يدل على أن المقصود بمن في السماء في الآية الأولى¹ هم الملائكة، أن الآية الثانية² المقارنة لها والمماثلة لها في التعبير «من في السماء» تتحدث عن الملائكة، فهم المكلفون بمهمة إرسال الحاصب والحجارة، قال تعالى في قصة إبراهيم - عليه السلام - مع الملائكة: «قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ليرسل عليهم حجارة من طين»³

وخلاصة القول أن القرائن المنفصلة في الآية واللفظية فيها، وعادة الاستعمال يدلان على أن المقصود بمن في السماء هم الملائكة.



¹ أي قوله «ألقنهم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور»

² أي قوله «ألم أنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصب»

³ الذاريات 31-33

الدليل الثالث

قوله صلى الله عليه وسلم: ((ينزل ربنا إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل)).

ينزل هذا الحديث الشريف عند ابن تيمية على أن الله فوق عرشه، ينزل في آخر الليل، يخاطب عباده المؤمنين، لأنه إذا لم يكن فوق عرشه الأعلى، فمن أين يكون النزول .

التقويم

1. تقدم في مبحث الاستواء أن لفظ العلو في النصوص الدينية، لا يقتضي علو الذات الإلهية على العرش، وإذا لم يكن يقتضيه -كما قال ابن تيمية- لم يلزم أن يكون على العرش، وحينئذ لفظ النزول ونحوه يتأول قطعاً، إذ ليس هناك شيء يتصور منه النزول¹ .

2. اعتمد ابن تيمية في تحليله للحديث على مجرد الإسناد في الجملة ((ينزل ربنا)) بدون بحث في عادة الاستعمال الشرعي في التعبير في أمثال هذه النصوص، التي تدل على أن المباشر للفعل هم الملائكة، وأسند الله الفعل لنفسه باعتباره الأمر. وقد تقدم بيان العادة، والكلام على هذا الحديث عندها، فراجعها إن شئت .

3. لو أخذنا بتحليل ابن تيمية للحديث لخاطبنا العقل بما لا يسلّمه، لأن إحدى السماوات قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن السماء أظلمت وحق لها أن تنطف ما فيها موضع أربع أصابع، إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله))²

وهذه السماء إما أن تكون السماء الدنيا أو غيرها، فإن كانت السماء الدنيا، فأين سينزل الله، هل يكون داخل السماء، والسماء مليئة بمكانها، أم يكون خارجاً عنها، والحديث يقول إنه ينزل إليها! وإن كانت غيرها، فمن أين سينزل الله إليها؟ اللهم

¹ مجموع الفتاوى 579,5

² أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن مويه القدر المنثور 318,5

إلا أن يحشر نفسه ويجمع داته في معراج الأعمال، ومصعد الأقوال، والملائكة الكرام !!

وعلى فرض تفريغها من الملائكة وقت النزول - وهو ما لا دليل عليه - فكيف تحمل السماء الربء وابن نومة يؤمن بأن حجم السماوات السبع والأرضين السبع كحردلة في يد الرحمن¹، فهي لا تكفي لملء يده، فكيف تسع ذاته؟

4. تحليل ابن نومة يؤدي إلى خلو السماوات السبع من الملائكة والجنة والنار لأن عقيدته أن الله ينزل إلى السماء الدنيا، ولا يخلوا منه العرش، وذاته متصلة لا حد لأعلاها².

فيكون مكانه في الشطر الأخير من الليل متصفا من السماء الدنيا إلى العرش الأعلى، وسينمحي كل ما في السماوات حتى الجنة والنار لامتلاء المكان بالذات الإلهية، وسيقوم هذا الإتمحاء بدوام هذا النزول، مع كل ليل، والليل لا ينقطع عن الكرة الأرضية.

5. لو أخذنا بتحليل ابن نومة لتناقضا مع ظاهر الحديث الشريف، فالتظاهر عنده على أن الله مستقر على عرشه طيلة النهار، لا ينزل منه إلا في الشطر الأخير، و تحليله يستلزم أن يكون الله في نزول دائم بدوام الليل في الكرة الأرضية، وعليه فلا يوجد له استقرار على العرش.

الدليل الرابع

عن عمر بن الحكم أنه قال : أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت: يا رسول الله إن جارية لي كانت ترعى غنما لي، فحنتها وقد فحنت شاة من الغنم، فسألته عنها، ففالت: أكلها التئب، فأسغت عليها، وكنت من بنى آدم، فطمعت وجهها، وعلى رقبة، فأعنتها ؟

¹ مجموع الفتاوى 439، 16

² وقد صرح بها أيضا إمام ابن تيمية أبو علي الحنفي في كتفه "مجموع الفتاوى" تكملة السوف 116

فقال لها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أين الله؟))

فألت: في السماء

فقال: ((من أنا؟)) فألت: أنت رسول الله.

فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أعتقها))¹

فهذا الحديث عند ابن تيمية يدل صراحة على مكان الله، ويحدده بأنه في السماء.

التقويم

هذا الحديث ورد في باب * الرقية المؤمنة التي يجوز عتقها* يوضح طريقة الكشف عن الإيمان، بالاستفسار عن أمور إذا ما وجدت في الإيمان، عُذ من زمرة المؤمنين وطائفة المصدقين.

والقارئ لهذا الحديث ولأحاديث أخرى مشابهة لهذا الحديث، كالحديث الذي ورد عن رجل من عمار أنه جاء بأمة سوداء، فقال: يا رسول الله، إن علي رقبة مؤمنة، فإن كنت ترى هذه مؤمنة فأعتقها؟ فقال لها رسول الله -صلى الله عليه وسلم: ((أشهادين أن لا إله إلا الله؟)) قالت: نعم. قال: ((أشهادين أني رسول الله؟)) قالت: نعم. قال: ((أؤمنين بالموت بعد الموت؟)) قالت: نعم. قال: ((أعتقها))² يلاحظ:

1. أن حديث الباب عبارته ((أين الله)) لا علاقة لها بالتوحيد والإيمان، لأن الإقرار بوجود الله في السماء لا يدل لا على إسلام ولا على إيمان، فاهل الجاهلية كانوا يقولون بوجود الله في السماء ومع هذا كثروا يتخذون معه آلهة أخرى.

2. أن الحديث الثاني ينسجم مع القاعدة الصريحة في الشريعة ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله))

¹ الموطأ - القس - 965,3

² رواه أحمد ورجله رجال صحيح مجمع الزوائد 247,4

والشهادة تخرج الإيمان من دائرة الكفر إلى دائرة الإيمان، لأنها تدل على أنه لا معبود بحق إلا الله، لأنه المستغنى عن كل ما سواه، المعترف إليه كل ما عداه، فهي تثبت لله الأوهية، وتثبت انفراده بها، وتنسب لغيره العبودية، وتجرده من كل خصائص الربوبية.

وأما التعبير بأن الله في السماء فلا يدل على الإسلام؛ لأن أهل الجاهلية - كما سبق - كانوا يقولون بوجود الله في السماء، ويتخذون معه آلهة أخرى. ونحن هنا بين خيارين:

1. إما أن نقول إن اللفظ النبوي الذي عبر به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واستعمله عن الإيمان به في الحديث الأول، هو ((أشهد أن لا إله إلا الله)) لأن الشهادة تكشف عن التوحيد وتدل عليه، فيكون الحديث منسجماً مع عنوان الباب الذي ورد فيه الحديث، ومتوافقاً مع السياق لللاحق والسؤال السابق - السؤال هدفه التأكد من إيمان الجارية - أي هل هي مؤمنة فأعتقها، أم هي غير مؤمنة فأباحت عن غيرها¹.

2. أو نقول إن اللفظ النبوي الذي نطق به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو الاستكهام عن المكان ((أين الله)) فتقطع العلاقة بين الحديث والطلب أثرهما مؤمنة أي تنقطع العلاقة بين السؤال والجواب، لعدم دلالة الاقرار بالمكان على التوحيد والإيمان، فيخرج القول عن مقتضى الحال، وما يقتضيه المقام من المقال، ويصير كلاماً غير بليغ.

وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن لفظ 'أين الله' وقعت روايته بالمعنى، وأن الراوي في إحدى الطبقات أخطأ في التعبير، وزحل عن دلالة الأينية 'أين' وعن عدم علاقتها بالتوحيد والإيمان، وسها عن مورد الحديث.

فإن قيل، فليكن لفظ الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو 'أين الله' ولفظ الراوي هو 'أشهد' رواية بالمعنى على الصورة السابقة، فالجواب أنه لم يصح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في تلقين الإيمان طول أداء رسالته السؤال بأين، أو ذكر ما

¹ يسلم ابن شعبة بأن المقصود بالسؤال هو اسمائها لمعرف أنها مؤمنة أم لا . مجموع الفتاوى 192,5

يوهم المكان ولا مرة واحدة في عيز هذه القصة المصرية. - القصة هو تقسيم
 كلمة الشهادة، فاللفظ الجارى على الحادة اختر ما يكون معه قروم - حتى -
 عليه وسلم¹ والدليل متى تطرق إليه الإحتمال بطل به الإستدلال
 وعلى كل الحديث كان مع حارية صغيرة ملها متخلفة في الناحية العقلية. -
 أن المصداق انبهم عليه حالها مع إبتلاكه لها وعيشها معه، فجاء بمائل الرمون
 - صلى الله عليه وسلم - عن إيمانها ومستوى البلاء لا يتعدى المحسوسات.



¹ كلمة سيف الصل 108-109

أدلة العروج والرفع

استدل ابن نبيمة وابن القيم على وجود الله تعالى فوق العرش بالآيات الكريمة:

﴿يعرج الملائكة والروح إليه﴾

﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾

﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه﴾

﴿إني متوفيك ورافعتك إلي﴾

وحاء في الحديث الشريف ((يعرج الذين باتوا فيكم إلى ربهم، فيسألهم وهو أعلم بهم))¹.

التفويض

(1) في هذا الاستدلال وقوف على اللفظ المتشابه، وطرح للفظ المحكم، الذي بين غاية العروج، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾² أي التي ينتهي إليها كل شيء، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها، فيقبض منها». وقال ابن عباس: سميت بذلك لأن إليها ينتهي علم الملائكة -عليهم السلام³ - . ومكان السدرة في قول الأكثر السماء السابعة⁴، وفي حديث ابن مسعود أنها في السماء السابعة⁵. وتنتهي لعظمتها في السابعة⁶.

¹ انظر مجموع الفتاوى 136,5-137 غزوة ابن القيم مع السيد السبق 102

² ص 13 - 14

³ اكمل الإكمال على صحيح مسلم 309,1

⁴ المرجع السابق مع السكان

⁵ مسلم - الأبي - 325,1

⁶ اكمل الإكمال 325,1

وسواء كانت في السادسة أو السابعة فهي تحت العرش بفاصل عظيم، ففي حديث الأوعال الذي يؤمن به ابن تيمية ((وفوق السماء السابعة بحر، بين أسفله وأعلى كما بين السماء والأرض [مسيرة خمسمائة عام] ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين ركبهن وأسطلهن كما بين السماء والأرض، ثم فوق ذلك العرش، بين أسفله وأعلى كما بين السماء والأرض))¹ فيكون ما بين سدرة المنتهى وبين نهاية العرش ما يزيد عن مسيرة ألف وخمسمائة عام.

والشاهد أن الانتهاء في العروج لم يكن لذات الله، وإنما كان لسدرة المنتهى، وأضيف العروج إلى الله، كما أضيف الذهاب إليه في قوله تعالى على لسان إبراهيم -عليه السلام-: «إني ذاهب إلى ربي سيهدين» أي إلى الموضع الذي أمرني ربي أن أذهب إليه، أخرج ابن المنذر عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله: ((وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين)): قاله حين هاجر².

(2) لأن الآيات السابقة عبرت بلفظ ((إليه)) مع اختلاف المكان الذي ينتهي إليه الرفع والعروج:

فمرح الملائكة ينتهي إلى سدرة المنتهى، ومكان السدرة في السماء السادسة أو السابعة.

ورفع سيدنا عيسى -عليه السلام- كان للسماء الثانية، كما جاء في حديث المعراج³.

فإن أخذنا بظاهر لفظ ((إليه)) قلنا إنه يدل على مكان الله، يكون الله في مكانين: في السماء الثانية على ظاهر قوله تعالى: «إني متوكلت ووافعت إلهي» وفي السماء السابعة على ظاهر قوله تعالى: «نرح الملائكة والروح إليه»

وهذا التأويل الظاهري يحالف عقيدة ابن تيمية الذي يؤمن بأن الله موجود فوق العرش، ويعنى هذا مخالفة ابن تيمية لمنهجه في التحليل، أو عدم تكبره لما يورده من نصوص.

¹ مسند الإمام أحمد -فتح- 2.

² قدر المتنور 304,5

³ سلم -الأبي 307,1

(3) أن تحليله يؤدي إلى مخالفة تحليل المؤلف وعقيدتهم:

- قال حماد بن زيد: «سعود الكلام كفاية عن القول»¹.
- قال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: «كأن الله ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان، وبمثل قوله قال الشافعي وجعفر الصادق وكثير من المؤلف، وقد سبق ذكر أقوالهم وعقيدتهم.



¹ إكمال الإكمال 309، 1 وحماد بن زيد من يستدل به في تهمة.

حديث المعراج

استدل ابن تيمية¹ بحديث المعراج على وجود الله فوق العرش، وعلى تحديد مكانه، سبحانه وتعالى عما يقولون.

التقويم

لم يرد في حديث المعراج - كما قال ابن جهيل - أن الله فوق السماء، أو فوق العرش حقيقة، ولا كلمة واحدة من ذلك.

قال: وهو لم يسرد حديث المعراج، ولا بين وجه الدلالة منه حتى نجيب عنه، فلو بين وجه الدلالة لعرفنا كيف الجواب عنه².

وما جاء في حديث المعراج أن موسى - عليه السلام - قال للرسول صلى الله عليه وسلم: ((ارجع إلى ربك)) بماوى في التعبير والدلالة قوله صلى الله عليه وسلم: ((فيرج الذين باتوا فيكم إلى ربكم))؛ ففي التعبير عبر كل منهما بنفس ((إلى ربكم)) والميم في أحدهما علامة للجمع.

وفي الدلالة دل كل منهما على الموضع المقصود الذي جاء بياته في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن ابن مسعود قال: أُرِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، انتهى به إلى سدة المُنْتَهَى إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها منها³.

وفي الحديث أيضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ثم ذهب بي إلى سدة المُنْتَهَى فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أخذ من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إلي ما أوحى، ففرض علي خمسين صلاة⁴.

¹ مجموع الفتاوى 137، 5

² تكملة السيف، ص 102

³ مسلم - الأثر 325، 1

⁴ المرجع السابق والجزء 308 - 309

وسدرة المنتهى هي القول الصحيح موحودة في السماء السادسة¹. وفي القول الأصح موحودة في السماء السابعة، والقول الأصح هو قول الأكثر، كما قال الحافظ عياض².

بينها وبين نهاية العرش دون عظيم، لا يقل عن مسيرة ألف وخمسمائة عام على حسب حديث الأوعال الذي يؤمن به ابن تيمية، وبينها وبين بداية العرش ما لا يقل عن ألف عام كما حكاه ابن تيمية في الرسالة الحموية ص 122 حين قال: بين السماء للسابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والسماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش.

والنتيجة مما سبق أن مكان السدرة -أي مكان الوحي في ليلة المعراج- ليس مكان وجود الله، وهذا يدل على أن عبارة سيننا موسى في قصة الإسراء والمعراج "ارجع إلى ربك" فيها مضاعف محذوف، ويكون المعنى إلى موضع ربك المقدس الذي حصصه للمخاطبة.

والإضافة هنا للملكية والتشريف، كقوله تعالى: «ناقة الله» وكقوله صلى الله عليه وسلم عن الكعبة: ((بيت الله))

وعلى كل فلا يصح أن يكون مكانا لله عند ابن تيمية، لأنه ليس المكان الأعلى. وابن تيمية هنا بين خيارين:

— إما أن يسلم بتحديد أغلب الصحابة لمكان سدرة المنتهى بأنها في السماء السابعة، وأن بينها وبين العرش دون عظيم، فتتبقى الدلالة في حديث المعراج على أن الله مكانا.

— وإما أن يأخذ بقول ابن عباس بأن مكان سدرة المنتهى في يمين العرش³. ويعتبر قوله حجة، بصطدم بما صرح به في فتواه حين قال: لا يكون قول بعض الصحابة حجة مع مخالفة بعضهم له باتفاق العلماء⁴.

¹ المرجع السابق 325، 1

² إكمال الإكمال على مسلم 325، 1

³ إكمال الإكمال 325، 1

⁴ مجموع الفتاوى 14، 20

وابن عباس لم يأخذ المعلومة من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وإنما أخذها عن كعب¹ الأحمري، الذي يستند في رواياته على الإسرائيليات. وخطاب الله للرسول -صلى الله عليه وسلم- في ذلك المكان لا يدل على أن الله في جهة، قال إمام الحرمين الجويني عن الحديث الشريف: ((لا تفضلوني على يونس بن متى))؛ إن هذا الحديث يدل على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو عند سدرة المنتهى، لم يكن بأقرب إلى الله من موسى -عليه السلام- وهو في بطن الحوت في قعر البحر، فدل ذلك على أنه منزّه عن الجهات، وإلا ما صبح للنهي عن التفضيل².

قال الإمام مالك: إنما حص يونس للتزوية³، أي تزويه الله عن الجهة. ويونس عليه السلام كان في مقام المخاطبة، فهو القائل في بطن الحوت: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» وخطبه في بطن الحوت لله سبحانه، لا يدل على أن الله موجود فيه.



¹ قدر المنثور 139/6

² تكملة السبل 41

³ نقل هذا القول عن الإمام مالك الإمام المكي نصر الدين بن المنير في كتابه ((المكتفى إلى شرف المصطفى)) المراجع السابق والصفحة.

أدلة أخرى

أورد ابن تيمية وابن القيم في كتبهم أحاديث أخرى، تكلم عنها نقاد الحديث بالتضعيف والرد، ومنها:

(1) حديث سعد بن معاذ: "لقد حكم اليوم فيهم بحكم الله تعالى الذي حكم به من فوق سبع سموات".

التقويم

في سند هذا الحديث :

— إسحاق بن محمد وابن أبي أويس متكلم فيهما.

— ابن صالح، قال عنه أبو حاتم : ليس بالقوي.

صفة هذا الحديث

قال الحافظ ابن العربي : هذا الحديث غير صحيح¹.

وعلى فرض صحته فالموجود فوق السماء السابعة غير الموجود فوق العرش، لأن الذي بينهما لا يقل عن ألف عام كما يقول ابن تيمية في الرسالة الحموية، فالحكم من فوق السماء السابعة غير الحكم من فوق العرش، كما أن الحكم من فوق السماء الخاسية غير الحكم من فوق السماء السابعة².

والمقصود في الحديث فوقية السماء السابعة مباشرة، ودل على هذا حرف الجر من "من فوق".

والذي فوق السماء السابعة سدرة المنتهى التي تتلقى عندها الملائكة الوحي والأحكام كما جاء في حديث مسلم³ عن عبد الله بن مسعود، فحكم سعد مطابق لحكم الله المتلقى عند سدرة المنتهى التي هي فوق سبع سموات، والذي حكم به على

¹ عائش الصفات 420

² بينهما ألف عام

³ مسلم - الأب 125.1

اليهود بالقتل والإعدام، وبمعنى آخر اجتهد بعد مطابق لنصوص الشريعة وأحكامها.

(2) ومثل حديث بعد أثر عمر بن الخطاب الذي أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن زيد قال: لفي عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - امرأة يقال لها خولة، وهو يصير مع الناس، فاستوففته، فوقف لها، ودنا منها وأصغى إليها رأسه، ووضع يديه على منكبيها، حتى قصت حاجتها وانصرفت، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، حبست رجلاً فريش على هذه العجوز؟ قال: ويحك وتكرى من هذه؟ قال: لا. قال: هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات، هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت حتى تقضي حاجتها¹.

ومعنى هذا الأثر أن الله سمعها سمع إجابة، وأكرمها بأن أنزل آيات أول المجادلة بسببها؛ لأنه إذا كنا سنصر السمع في الأثر بمجرد السمع لصوتها، لم يكن لهذه المرأة حينئذ ما يميزها عن غيرها، لأن الله يسمع جميع البشر، كما يسمع صوتها، وبالتالي ليس هناك من سبب يدفع عمر بن الخطاب إلى هذا التوقير والتسجيل، فلما أجلها بما أجل، علمنا أنه يقصد سمعاً معيناً، وهو سمع الإجابة، على سبيل المجاز المرسل، من إطلاق السبب - السمع - وإرادة السبب - الإجابة لشكواها التي اشتهت فيها زوجها لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -² فيكون المقصود بالأثر أجاب الله شكواها من فوق سبع سموات، بالوحي إلى ملائكة التبليغ، والوحي مكانه في السماء عند سدرة المنتهى، التي هي فوق السماء السابعة مباشرة.

هذا كله إذا سلمنا بصحة الأثر وإلا فبأن في منده:

— حريز بن حازم محتلط

— أبو زيد أو ابن زيد الذي حدث عن عمر لم يدرك عمر ولم يعرفه الإمام مالك مع كونه مدنيًا، أي من أهل بلده³.

¹ الدر المنثور 198، 6-199

² انظر القصة في المراجع السابق وعبارة من التفسير

³ مدني الأسماء والصفات للكوثر 420

وصيغة الأثر عند البخاري في تاريخه عن عمر، مخالفة لهذه الصيغة، فقد جاء فيه: ما يمنعني أن أستمع إليها، وهي التي أستمع الله لها.¹ وما جاء فيه موافق لمنهج المؤلف في التعبير، الذين كانوا يراعون لفظ القرآن والحديث فيما يقولونه، ولفظ القرآن: «قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها» بدون تحديد لمكان السمع.

(3) حديث أبي رزين

جاء في مسند الإمام أحمد: حدثنا بهز، حدثنا حماد بن سلمة، قال: أخبرني يعلى بن عطاء، عن وكيع بن حنس، عن عمه أبي رزين العقيلي أنه قال: يا رسول الله، أين كان ربنا عز وجل قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ قال: كان في عمام، ما فوقه هواء، وما تحته هواء، ثم خلق عرشه على الماء.² وفي رواية "في عمي" بالتصريح.

التقويم

الكلام في هذا الحديث من ناحيتين:

- (1) من حيث ثبوته.
- (2) من حيث تأويله.

من حيث الثبوت

في مسند هذا الحديث حماد بن سلمة، وقد سبق بيان حاله وطلس العلماء فيه، وقد انفرد عن يعلى بن عطاء، ووكيع بن حنس مجهول الصفة، وقد انفرد عن ابن رزين.³

¹ الدر المنثور 199,6

² مسند الإمام أحمد - الفج - 3,20-4

³ هامش الإسماء والمصنفات 445

من حيث تأويله

أول ابن الأثير هذا الحديث بأنه مبني على حذف مضاف؛ تقديره أين كان عرش ربنا؟ فأجابه النبي - صلى الله عليه وسلم - بأنه كان في عسي، ثم جعله فوق الماء، وفعل ((خلق)) متضمن لمعنى جعل وأظهر العرش تقخيماً وتعظيماً، والقرينة والعلامة على هذا التأويل أن التحديد الموجود في قوله ((ما فوقه هواء وما تحته هواء)) لا يمكن أن يعود على ((عسي)) في رواية القصر، لأن العمى يعنى المعدوم¹، والمعدوم غير موجود، والتحديد من صفة الموجودات. ويمكن أن يعود على "عماء" - السحاب الرقيق - في رواية المد، بشرط أن لا يرجع الضمير المستتر في ((كان في عماء)) إلى الله.

وهذا الشرط يتوافق مع عقيدة ابن تيمية وعقيدة غيره؛ لأن السحاب محدد في الحديث من جهة الفوق والتحت "ما فوقه هواء وما تحته هواء" والموجود في المحدد محدد، وعقيدة ابن تيمية أن الله لا نهاية لذاته من أعلى². عليه فلا يمكن أن يرجع الضمير عليه، لأن الحديث يخبر عن شيء موجود في السحاب، له نهاية علوية.

والمصنف الصالح ينفي صفة الحد عن الله مطلقاً:

- قال زين العابدين: أنت الله الذي لا تحد³.
- وقال أبو حنيفة في كتابه الفقه الأكبر: ولا حد له ولا ضد⁴.

¹ لأن عماء لا شيء ثابت، وأطلق عليه لعل العمى لأنه عسي عن الحلق لكونه غير شيء. انظر الرباعي في مستند الإمام أحمد 4، 20.

² وهي عقيدة أهل الطاهر الذين يمثلون التأويل. انظر كتاب "مبادئ التأويلات" لأبي يحيى الحماني الذي صرح فيه بأن الله نهاية من أسفل هذا، وهو ما في الرتبة والمرتبة والفوق والأمام والخلف إلى غير غاية ولا نهاية.

تكملة السبب 116

³ المقالات السنية 89

⁴ فقه الأكبر 57

- وقال الإمام الشافعي: اعلموا أن الحد والنهاية لا يجوز على الله تعالى، ومعنى الحد طرف الشيء ونهايته.. لأن ما كان محدوداً متناهياً صح أن يتوهم فيه الزيادة والنفصان، وأن يوجد مثله، فكان لاختصاصه نوع من النهاية، والتحديد الذي يصح أن يكون أكبر منه أو أصغر، يقتضي أن يكون له مخصص يخصه على حد ونهاية، وخلق على قدر، وذلك دلالة الحدث، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً¹.

- قال الإمام أحمد بن حنبل الذي أخرج الحديث 'أين كان ربنا': لا تلحقه الحدود قبل خلق العرش، ولا بعد خلق العرش².

- وجاء في العقيدة الطحاوية التي تعبر عن آراء المسلف: تعالى عن الحدود والغايات³. والحاصل أن الموجودات قبل خلق السموات والأرض: الله، والعرش، والماء، والقلم. ولا يصلح أن يكون المتحدث عنه هو الله في الحديث الشريف. ولنت بالخيار، إما أن نقف عند هذا الحد بعد أن صرحت الحديث عن ظاهره، وتكل المعنى المقصود به إلى الله، أو نتجهد في تحديده، استعانة بالأحاديث الأخرى، أو بالقرائن اللفظية في الحديث كما فعل ابن الأثير.

4) حديث أبي الدرداء 'ربنا الذي في السماء تقدس اسمك'

التقويم

هذا الحديث غير صحيح، لأن في سنده زيادة بن محمد مفكر الحديث⁴، وعلى فرض صحته، فلا يتعين حمله على المكائبة لله سبحانه، لأن أصل الجملة كان هكذا: 'ربنا الذي تقدس اسمك في السماء، عند الملائكة للكرام⁵، وبهذا فلا دلالة فيه على ما يريد الطاهرية حمله عليه.

¹ لغة الأكرام للشافعي ص 8

² اعتقد الإمام أحمد أن موسى المداينة هو الفصل التيمم ص 6 مخطوط المغالات السنية 121

³ هاشم الأسماء والصفات 423

⁴ هاشم الأسماء والصفات 423

واننى ما يقال فيه لقاعدة الأصولية: الدليل متى تطرق إليه احتمال صرح به الاستدلال .

- (5) حديث عمران حين سأله النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((كم تعبد اليوم من إله؟)) قال: سبعة: ستة في الأرض، وواحد في السماء .
قال: ((فأيهم تعد لرؤيتك)). قال: الذي في السماء. قال: ((أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين تدفعانك))، قال: فلما أسلم أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، علمني الكلمتين اللتين وعدتهما، قال صلى الله عليه وسلم - ((قل اللهم ألهمني رشدي، وقلي شر نفسي)).

التكوين

في سند هذا الحديث شبيب ضعفه النسائي وغيره .
وعلى فرض صحته فلا يجوز به الاستدلال على إثبات المكان لله، لأن هذا السؤال وقع يوم كان حصين مشركاً، ولا يكون من باب الإقرار ما يشاهده النبي -صلى الله عليه وسلم- في المشرك ويسكت عنه، لأنه لو حمل على الإقرار لعد سكوته على قوله بوجود الألهة في الأرض إقراراً أيضاً .
وعرض النبي -صلى الله عليه وسلم- الإسلام على حصين بعد ما تكلم بما تكلم به صريح في استنكار ما قاله¹ .

- (6) قول ابن المبارك الذي رواه علي بن الحسن بن شقيق، أخبرنا أبو عبد الله قال سمعت أبا جعفر محمد بن صالح بن هارون يقول سمعت محمد بن نعيم يقول:- سمعت الحسن بن الصباح النزار يقول: سمعت علي بن الحسن يقول: سألت عبد الله بن المبارك: كيف تعرف ربنا؟ قال: في السماء السابعة على عرشه. قلت: فإن الجهمية تقول هو هذا . قال: 'إنا لا نقول كما قالت الجهمية تقول: هو هو . قلت: بحد، قال إي والله بحد .

¹ المرجع السابق 423-424.

- في سنده الحسن بن الصباح قال عنه التميمي: ليس بالقوي، وابن شقيق تكلموا فيه في الإرجاء¹.
- في مثته عدم الانسجام بين المزال والحواب، فالمزال بكيف، والجواب بالمكان.
- في عقيدته محاولة لعقيدة السلف الصالح الذين يذهون الله عن الحد، وقد تقدم نقل أقوال الأئمة في هذا، فراجعهم إن شئت.
- في طريقة تعبيره مخالفة لمنهج السلف الذين كانوا يراعون لفظ القرآن والحديث فيما يشئون، فلفظ، في السماء السابعة لم يرد في الكتاب والسنة الصحيحة.
- ويحل مقدار الإمام أن يكون من الشاخير في عقيدته ومنهجه عن السلف الصالح.
- مما يدل على أن الحل الواقع فيه حاء عن طريق أحد الرواة.
- وعلى كل نقوله لا يعتبر من الأدلة الشرعية التي يستند إليها في الشريعة.
- وهناك أحاديث أخرى استدل بها ابن تيمية وابن القيم تكلم فيها العلماء بالنقد والطعن فراجعها إن أحببت في مطالعها².



¹ المرجع السابق 426-427

² كنهش الأسماء والصفات للكوثري، وتكملة صلب الصول له، وفي كتابه "المعاني"

أصاف العلماء

يمكن تصنيف العلماء الذين ينقل عنهم ابن تيمية وابن القيم في كتبهما أن الله في السماء إلى :

1. كذابين.
- ومن أمثلتهم:-
- أ. أبو مطيع البلخي¹ الذي نقل عن أبي حنيفة أن الله في السماء، قال عنه ابن حجر في لسان الميزان²: قال أبو حاتم الرازي: كان مرجئا كذابا.
- وقال عنه الإمام أحمد: لا ينبغي أن يروى عنه شيء، وعن ابن معين إنه ليس بشيء³.
- ب. ابن بطة.
- قال عنه الحافظ ابن حجر: وقفت لابن بطة على أمر استعظمته، واقتصر جلدي منه⁴.
- ج. الكلبي، قال عنه يحيى بن معين: ليس بشيء⁵، وروايته عن أبي صالح سلسلة الكذب⁶.
- د. أبو العز بن كائن أحمد بن عبد الله من أصحاب المشاري كان كذابا يضيع الحديث باعترافه كما جاء في الميزان.

¹ مجروح العاوي 183,5

² 335,2

³ الميزان 574,1

⁴ لسان الميزان 113,4، تاريخ بغداد 375,10

⁵ تكملة السيف 206

⁶ التحرير والتنوير لابن عثور

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يكون في آخر الزمان رجالون كذابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آبائكم، فليأكلهم ولا يضلونكم ولا يفتنونكم))¹

2. قاتلون بالتجسيم للذات الإلهية

ومن أمثلتهم أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرجي الشافعي صاحب الفصول، وأبو الحير يحيى العمراني، قال للمحدث الكوثري: قد كفنا مؤنة الرد عليهما ما قاله أيهما ابن السبكي والياقعي الشافعيان².

3. قاتلون بالتشبيه كمحمد بن أبي شيبة صاحب كتاب العرش، الذي اجتمع فيه وصف التشبيه والكذب³، وكفائل بن سليمان الذي قال عنه الإمام أبو حنيفة: كما جاء في تهذيب التهذيب: أئانا من المشرق ريان خبيثان: جهم معطل، ومفائل مشبه.

وقال: أفرط جهم في النفي حتى قال: إن الله ليس بشيء، وأفرط مقاتل في الاتبات، حتى جعل الله تعالى مثل خلقه⁴.

وقد روى البهوي الشافعي عنه وعن الكلبي، مصرحاً بهما، اعتماداً على قول أهل النقد فيهما، ودلالة على أن هذا القول العلوي الحسي - قول أهل الزيغ.

4. غير متخصصين

ومن أمثلتهم

أ. ابن خزيمة، الذي يقول عن نفسه: ما تتكرون على فقيه راوي حديث، أنه لا يحسن الكلام⁵ أي علم العقيدة الذي من أسماؤه علم الكلام.

قال الإمام البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، قال: سمعت أبا الحسن علي بن أحمد الزاهد البوشنجي يقول: دخلت على عبد الرحمن بن أبي حاتم السرازي

¹ مسلم - الأبي - 21، 1

² التكملة من المكان

³ نفس المكان

⁴ فرقان القرآن للبرقي 21

⁵ الأسماء والصفات للبيهقي 267

بالري، فأخبرته بما جرى بليسابور بين أبي بكر بن خزيمة وبين أصحابه، فقال: ما لأبي بكر والكلام، إنما الأولى بنا وبه أن لا نقول فيما لم نتعلمه.

فخرجت من عنده حتى نزلت على أبي العباس الفلاكي، فقال: كان بعض القدرية - من الفرق المخرقة - وقع إلى محمد بن إسحاق، فوقع لكلامه عنده قبول [أي تأثر بهم، ونقل قولهم بلا تحيص] ثم خرجت إلى بغداد، فلم أدر فيها فقيها ولا متكلماً إلا عرست عليه تلك المسائل، فما منهم من أحد إلا وهو يتابع أبا العباس الفلاكي على مقالته، ويعتم لأبي بكر بن إسحاق فيما أظهره¹. وحاصل هذه النقولات:

• أن ابن خزيمة ليس من أهل الذكر في علم الكلام، فلا ينبغي ولا يجوز الاعتماد عليه فيه فاسألوا أهل الذكر؛

• أنه مخالف لمهجرة الفقهاء والعلماء في زمانه، وأنهم مستأثرون منه لشذوذه، وخروجه عن الطريق المستقيم، وتكلمه فيما لا يعلم، وابن تيمية يصف هذا الشيخ غير المتحضر وغير المتقن لعلم الكلام بأنه إمام الأئمة²، مع أن الله يقول «الرحمن فاسأل به خبيراً» ومع أن السلف الصالح يلهجون بالآثر الصريح ((انظروا عن تأخذون دينكم))

ب. ومن أمثلة هذا الصنف ابن أبي حاتم الذي أقر على نفسه بأنه يجهل علم الكلام³ واللائكائي والطنمكي إسماعيل التيمي اللذين تكلمتا في غير تخصصهما⁴.

5. علماء يتكلمون المجاز كان خوريز منداد من المالكية، وكأبي عبد الله بن حامد؛ وابن الزغواني وصاحبه القاضي⁵، وقد سبق في التمهيد بيان بطلان هذا المذهب، ومن كلام ابن حزم عن ابن خوريز منداد بهم أنه إنما أنكر المجاز،

¹ المرجع السابق 267 269

² مجموع الفتاوى 138,5

³ الأسماء للبيهقي 199

⁴ تكملة السيف 125

مذكورة أصول فقه الشافعي 58: المحار للنسفي 1122,2

ليثبت أن الحجارة لها عقل به تحشى الله، كما يخشاه العقلاء، وهذا ما يفسده ظاهر النص الكريم «وإن منها لما يهبط من خشية الله» وقد حمل عليه ابن حزم في كتابه "الأحكام في أصول الأحكام 543,4" وعلى أمثاله جملة عنيقة، وسخر منه ومن عقله الذي زعم أن للحجارة عقلاً¹. ومستند ابن خويز مددك في إنكار المجاز - كما ترى لا وزن له، وما بناء من الأحكام في تحليل الآيات المتشابهة على هذا الأساس يأخذ حكمه.

أما ابن حامد ومن معه من الحنابلة فقد قال عنهم الحافظ ابن الجوزي: رأيت من تكلم من أصحابنا في الأصول بما لا يصلح، والتكذب للتصنيف منهم ثلاثة، ابن حامد وصاحبه القاضي، وابن الزغواني، صنفوا كتباً شأنوا بها المذهب، وقد رأيتهم نزلوا إلى مرتبة فحملوا الصفات على مقتضى الحس... وقد أخذوا بالطواهر في الأسماء والصفات، فسماوا الصفات تسمية مبتدعة، لا دليل لهم في ذلك من النقل ولا من العقل، ولم يلتفتوا إلى التصوص بالصارقة عن الطواهر إلى المعاني الواجبة لله سبحانه وتعالى، ولا إلى إلغاء ما توجبه الطواهر من سمات الحدث، ولم يقتنعوا أن يقولوا صفة فعل حتى قالوا صفة ذات، ثم لما أثبتوا أنها صفات قالوا لا نحملها على ما توجبه اللغة مثل اليد على النعمة أو القدرة، ولا المجرى على معنى البر والعلف، ولا المساق على الشدة، ونحو ذلك، بل قالوا نحملها على ظواهرها المتعارفة، والظاهر هو المعهود من نعوت الأئمة، وهم يخرجون من التشبيه، وينفون من إضافته إليهم، ويقولون نحن أهل السنة، وكلامهم صريح في التشبيه، وقد تبعهم خلق من العوام على ذلك، لجهلهم ونقص عقولهم، وكفروا بتقليدنا، وقد نصحت للتابع والمتبوع.

هل يلحقكم أنه -أي الإمام أحمد- قال: إن الإستواء من صفة الذات المقدس أو صفة الفعل؟

فمن أين أقنعتكم على هذه الأشياء؟

¹ المجاز للمعنى 1122,2

وهذا كله ابتداء قبيح. فلا تدخلوا في مذهب هذا الرجل الصالح السلمي -
أعني الإمام أحمد - ما ليس منه، فقد كسبتم هذا المذهب شيئاً قبيحاً، حتى لا
يقال عن حنبلي إلا مجسم، ثم زينتم مذهبكم بالعصبية ليريد، وقد علمتم أن
صاحب المذهب أجاز لعنته، وقد كان أبو محمد التميمي يقول في بعض
لعنكم: لقد شأن المذهب شيئاً قبيحاً لا يغسل إلى يوم القيامة¹.

6. عثماء لا يعتد بروايتهم، كحماد بن سلمة، وكعبد الله بن نافع بن الصائغ، فقد
كان حماد مختلطاً يدخل في حديثه ربيباء ما شاء.

قال المحدث الكوثري: وكفي في معرفة حال حماد بن سلمة الإطلاع على كتب
الموضوعات - أي التي تتحدث عن الأحاديث الموسوعة المكتوبة، في باب
التوحيد منها خاصة، فيرى فيها القارئ أخباراً تالفة رويت بطريقه بكثرة، بل
ما سرد ابن عدي نفسه في الكامل في ترجمة حماد هذا، من الأحاديث التالفة
المروية بطريقه، كان في معرفة سقوط ما يرد من طريقه وروايته، بل سقوط
ابن عدي المتحسّن دونه².

وقال عنه إبراهيم بن عبد الرحمن بن مهدي: كان حماد بن سلمة لا يعرف
بهذه الأحاديث، حتى خرج خرجة إلى عباد، فجاء وهو يرويه، فلا أحسب
إلا شيطاناً خرج إليه في البحر، فألقاها إليه³.

وعبد الله بن نافع الذي يروي عن مالك أنه قال: "الله في السماء" قال عنه
الإمام أحمد: عبد الله بن نافع الصائغ لم يكن صاحب حديث، وكان ضعيفاً فيه،
وقال عنه ابن عدي: يروي غرائب عن مالك. وقال ابن فرحون: كان أصماً
لمياً لا يكتب⁴.

¹ دفعه من ثقته ونسره 6-7

² تكلم السيف 111

³ المرجع السابق 110 قال عباد بن منصور - رضي الله عنه -: إن الشيطان ليشتل في صورة الرجل،
يرثي القوم فيحدثهم بالحديث من الكتب - مسلم - الأبي - 21، 1

⁴ المرجع السابق 129

ومن أمثلتهم:

أ. الشيخ عبد القادر الجيلاني، الذي نقل ابن تيمية من كتابه "القنية" قوله: ويبيعي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، وأنه استواء الدات على العرش¹.

وقد ذكر الياضي في نشر المحاسن، وابن حجر المكي في فتاويه، والنجم الأصمهاني، أن ذكر الجهة - أي كونه تعالى في الأعلى على العرش - ونحوه مدسوس في كتب الشيخ عبد القادر، وأنهم لا يعتقدون بروايات أمثال الذهبي وابن القيم وشيخه وابن رجب عنه في هذا الصدد، لأنهم متهمون عندهم فيما يتعلق بالجهة²، ويؤكد هذا لدس ما جاء في عقيدة الأكابر للشيخ به: لئن الأئمة وتقره عن الأئمة.

- قال الحافظ صلاح الدين العلائي عن الذهبي: لا أشك في دينه وورعه وتحريه فيما يقوله عن الناس، ولكنه غلب عليه مذهب الإثبات، ومنافرة التأويل، والغفلة عن التنزيه، حتى أثر ذلك في طبعه انحرافاً شديداً عن أهل التنزيه، وميلاً قوياً إلى أهل الإثبات، فإذا ترجم لواحد منهم، يطنب في وصفه بجميع ما قيل فيه من المحاسن، ويبالغ في وصفه، ويتغافل عن غلطاته، ويتأول له ما أمكن، وإذا ذكر أحداً من الطرف الآخر كإمام الحرمين والغزالي، ونحوهما، لا يبالغ في وصفه، ويكثر من قول من طعن فيه، ويعيد ذلك ويبيده، ويعتقده دينا، وهو لا يشعر، ويعرض عن محاسنهم الطائفة فلا يمتنعها، وإذا ظفر لأحد منهم مغلطة ذكرها، وكذلك يفعل في أهل عصرنا، إذا لم يقدر ذلك على أحد منهم بتصريح بقول في ترجمته: والله يصلح. ولحق ذلك، وسببه المحالفة في العقائد³.

- قال التاج ابن السبكي: الحال في شيخنا الذهبي أزيد مما وصف، وهو شديداً ومعلنا، غير أن الحق أحق أن يتبع، وقد وصل من التعصب المعرط إلى حد

¹ مجموع الفتاوى 85، 86

² النكلة 113-114

³ نقله عن المحدث الكوثري في النكلة 202-203

يسخر منه . والذي أدركنا عليه المشايخ النهي عن النظر في كلامه، وعدم اعتبار قوله، ولم يكن يستجري أن يظهر كتبه التاريخية إلا لمن يغلب على طبعه أنه لا يقل عنه ما يعاب عليه، وأما قول المعتكفي عن دينه وورعه وتحرية فيما يقوله، فقد كنت أعتقد ذلك، وأقول عند هذه الأشياء ربما اعتقدها ديناً، ومنها أمور أقطع بأنه يعرف بأنها كذب، وأقطع بأنه لا يفتقها، وأقطع بأنه يحب وضعها في كتبه لتتشرب، وأقطع بأنه يحب أن يعتقد سامعها صحتها بعضنا للمتحدث فيه، وتغفيرا للناس عنه، مع قلة معرفته بمدلولات الألفاظ ومع اعتقاده أن ذلك مما يوجب نصراً للعقيدة .¹

وقال القاج أيضاً في طبقاته، وهو يترجم لإمام الحرمين ما نصه: 'وقد كان الذهبي لا يدرى شرح البرهان، ولا هذه الصناعة، ولكنه يسمع خرافات من ملحة الحبايلة فيعتقدها حقاً، ويودعها تصانيفه'.²

ب. الإمام الشافعي، فاعتقاده المذكور في ثبت الكوراني كذب موضوع، مروى بطريق ابن كادش والعشاري وأولهما كان كذاباً، يضع الحديث كما جاء في الميزان، وثانيهما كان مغفلاً يتقن ما يلقن.³

ومما ينفي عن الإمام القول بالإثبات الظاهري للاستواء على العرش قوله في كتابه 'اللفظ الأكبر' واعلموا أن الباري لا مكان له، والدليل عليه هو أن الله تعالى كان ولا مكان، فخلق المكان، وهو على صفته الأزلية، كما كان قبل خلقه للمكان.

وصرح العلم العراقي أن الإمام الشافعي ومالك وأبا حنيفة والأشعري والباطناني كانوا يقولون: إن معتقد الجهة كافر.⁴

ج. الإمام البيهقي الذي نقل عنه ابن تيمية أنه يقول في باب الاستواء أن الله على عرشه، وأنه يبطل قول من يقول إن الله بذاته في كل مكان.⁵

¹ الكلمة 203

² المرجع السابق 206

³ الكلمة 116

⁴ مجموع الفتاوى 192، 5-193

والإمام البيهقي بعيد عما يريد ابن تيمية نسخته إليه، فهو يرى انحصار الحق في قوله تعالى: «ثم استوى على العرش» في طريقين:

- طريقة التفويض التي تكل المعنى المراد بالجملة إلى الله.

- طريقة التأويل.

وأصحاب التأويل في رأي البيهقي لا يقصدون بالعلو فيه علو الذات، وإنما علو المكانة.

فالبيهقي كما قال الدكتور أحمد بن عطية الغامدي -من أتباع ابن تيمية-: لا يرى الإثبات الحقيقي¹، ويژه الله تعالى عن الجهة والمكان².

8. علماء لا تدل عباراتهم صراحة على الإثبات الحقيقي أي الجلوس والاستقرار - كقول مجاهد الطبري: "استوى" علا على الأرض، وكفسير أبي العاتية الرياحي الاستواء بالارتفاع، وكقول أحمد وإسحاق بن راهويه أن الله فوق سمواته.

فقد تقدم بيان مذهب السلف في العلو، وأنهم يقصدون بالعلو علو القدرة لا علو الذات، وقد صرح الإمام ابن جرير الطبري بقصده في لفظ علا حين قال في تفسير قوله تعالى: «وهو العلي العظيم» العلي العميل، من قولك علا يعملو إذا ارتفع، فهو عال وعلي، والعلي ذو العلو والارتفاع على خلقه بقدرته³. ونفسيره العلو بالعلو المعنوي هو الذي يليق بجلال الله كما سبق بيانه.

9. علماء أخذوا النظرية مسلمة ممن سبقهم بدون تحقيق كابن عبد البر الذي قال: إن أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز⁴. وقد تقدم في هذا البحث ما ينفي هذا القول، ويبطل هذا الإجماع:

¹ البيهقي وموقفه من الإثبات 274

² المرجع السابق 282

³ تفسير ابن جرير الطبري 192.1

⁴ مجموع المناوى 87.5

- فقد أول ابن عباس الساق بالشدة.
- وأول الحسن البصري القنم بالذين قدمهم الله من شرار خلقه.
- ونقل الإمام الربيع عن الصحابة تأويلاتهم لقوله تعالى: «الرحمن على العرش استوى»¹.
- وأول ابن جرير العلو بعلو القدرة².
- وأول قوله تعالى: «والسماء بيناها بأيدٍ» بالقوة، ونقل تأويل الأيدي بالقوة عن ابن عباس ومجاهد وقتادة ومنصور وابن سفيان³.
- والأيدي في اللغة جمع يد، وهي الكف، جاء في الثماموس، اليد الكف، أو من طرف الأصابع إلى الكتف، أصلها يدي، جمعها أيد ويدي.
- وأول الإمام البخاري الضحك بالرحمة⁴.
- وروى البيهقي عن الحاكم عن أبي عمرو بن السماك عن حنبل أن أحمد بن حنبل تأول قوله تعالى: «وجاء ربك» أنه جاء ثوابه.
- ثم قال البيهقي: وهذا إسناد لا يجاز عليه⁵.
- وأول ابن جرير قوله تعالى: «تجري بأعيننا» بأن المقصود منه مراءى منا ومنظره، ونقل أن سفيان أول «بأعيننا» بأمرنا⁶.
- وأول كذلك ابن جرير قوله تعالى: «وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان» بأن المعنى المقصود من قوله «يد الله مغلولة» أن خير الله ممسك وعطاء محبوب، ومن قوله «بل يداه مبسوطتان» العطاء.

¹ نقلت في هذا البحث التوابات السابقة

² تفسير ابن جرير

³ مناقب الأشراف 341

⁴ البداية والنهاية 327، 10

⁵ تفسير ابن جرير

ثم قال: لأن عطاء الناس في وصف بعضهم بعضاً إذا وصفوه بجود وكرم، أو بخُل وشح وعنيق، بإضافة ما كان ذلك في صفة الموصوف إلى يديه، كما قال الأعشى:

بذاك بدا محد فكك مقيدة وكف إذا ما طن بالزاد تنفق

فأساف ما كان صفة صاحب اليد من إتفاق وإفادة إلى اليد.

ومثل ذلك في كلام العرب في أشعارها وأمثالها أكثر من أن يحصى، وخاصتهم الله بما يعني بذلك أنهم قالوا: إن الله بخُل علينا، وبمعنا فضله، فلا يفصل، كالمفولة يده، الذي لا يقدر أن يبسطها بعباء ولا بذل.. ثم قال: ويمثل الذي قلنا قال أهل التأويل كابن عباس وقتادة والضحاك¹.

- وأول سعيان الثوري الوجه في قوله تعالى: «كل شيء هالك إلا وجهه» بالملك، وكذلك فعل الإمام البخاري².

- وأول الإمام الحافظ أبو سليمان الخطابي اليمين في قوله - صلى الله عليه وسلم -: ((من تصدق بعدل ثمرة من كسب طوبى، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه)) فقال: معناه حسن القول، فإن العادة جرت من ذوى الأدب، بأن تصان اليمين عن الأشياء الدنية، وإنما يباشر بها الأشياء التي لها قدر ومزية³.

- وأول حماد بن زيد قوله - صلى الله عليه وسلم -: ((يدرك ربنا إلى السماء الدنيا)) بأنه كتابة عن الإقبال⁴.

- وأول ابن عباس قوله تعالى: «سنخرج لكم أيها الثقلان» بأنه وعيد من الله للعباد، وليس بالله شغل⁵.

¹ المرجع السابق

² المغالات السنية 80

³ نكح الإكمال 301، 8

⁴ دقائق الإشارات 333

⁵ المرجع السابق 356

- وأول فتاة: ((وإن دعوت منى شبرا ذنوت منك ذراعاً))¹ بالأسراع بالمفخرة².
- وقال الحافظ ابن العربي: قوله عليه السلام: ((تقع في كف الرحمان)) كلام صحيح يشهد له القرآن والسنة، فإن الله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ فعبّر عن نفسه الكريمة بالمستقرض، فمن دفع للمستقرض شيئاً، فقد وقع ما دفع في كف المستقرض، كما أنه قال: «مرضت فلم تعدني» فيكون المرض صفة؛ فكما أنه لا يكون المرض صفة لا يكون الكف كذلك³.
- وصرح الإمام مالك والأوزاعي في قوله صلى الله عليه وسلم: ((ينزل ربنا إلى السماء الدنيا)) بأن الله لا يجوز عليه الإنزال⁴.
- وأول النظر بن شميل القدم في قوله صلى الله عليه وسلم: ((حتى يضع رب العزة فيها قدمه)) بأنهم الكفار الذين سبق في علم الله أنهم من أهل النار⁵.
- وأول الإمام البيهقي قوله تعالى: ﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾ بأنهم يفسدون ما يظهرون من الإيمان، بما يصممون من الكفر، «وهو خادعهم» أي يفسد عليهم نعمهم في الدنيا، بما يصيرهم إليه من عذاب الآخرة⁶.
- وروى البيهقي عن الشافعي في قوله تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ أن ليس المقصود بأهون ظاهراً، وإنما جاء على طريقة البشر في التعبير، فليس شيء يعظم الله عز وجل⁷.

¹ حديث ينكح على النومة

² روى أحمد ورجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد 81, 10

³ إبراىي السائلة 274

⁴ دفع شيء من تشبه ونسود ص5

⁵ دقائق الإشراف 287 دفع شيء من تشبه 12

⁶ دقائق 354

⁷ المرجع السابق 369

- وقال الحافظ ابن حجر المسقلاني في فتح الباري عن حديث الصوت: لفظ الصوت مما يتوقف في إطلاق نسبتة إلى الرب سبحانه، ويحتاج إلى تأويل¹.
- وقال الإمام الحافظ ابن دقيق العيد: إن كان التأويل من المجاز البين الشائع فالحق سلوكه من غير توقف².
- وقال شريح - رضي الله عنه - في قوله تعالى: «بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ» على قراءة الرفع في الضمير «عَجِبْتَ»: إن الله لا يعجب من شيء، إنما يعجب من لا يعلم³. قال ابن الأثير: معنى عجب ربك زادهم إماماً، فغير بالعجب عن ذلك. قال الأئمة: لأن العجب إنما يكون من شيء يدهم الإنسان فيستعظمه مما لا يعلمه، وذلك إنما يكون في المخلوق، وأما الخالق فلا يلحق به ذلك، فمعناه عظم قدر ذلك شيء عنده، لأن المتعجب من الشيء يعظم قدره عنده⁴.
- وأول الإمام العازري اليد في قوله صلى الله عليه وسلم: ((يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى)) بالفترة⁵.
- وأول الإمام الشافعي الوجه في قوله تعالى: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» بالذات.
- وأول الجنب في قوله: «أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ» فقال: وهذا لا معنى للجنب فيه لا حقيقة ولا مجازاً، لأن العرب تقول: هذا الأمر يصفر في جنب هذا، أي يصفر بالإضافة إلى الآخر، فكذلك الآية معناها «يا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ» أي فيما بيني وبين الله، إذا أضفت تكريطاً إلى أمره ونهيه ليأتي، ثم قال: فقد ظهر بهذه الأمثلة، كيف يقع الخطأ في العربية في كلام الله سبحانه وتعالى، ومنه نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - وأن ذلك يؤدي إلى تحريف الكلم عن مواضعه، والمصاحبة

¹ فتح الباري 1، 174

² التكملة 151

³ دلائل الإشارات 345

⁴ دفع شبه من شدة 13

⁵ البراهين الساطعة 272

- رسي الله عليهم - براء من ذلك، لأنهم عرب، لم يحتاجوا في فهم كلام الله تعالى إلى أدوات ولا تعلم¹.

- ونقل النووي في شرحه على صحيح مسلم عن القاضي عياض أنه لا خلاف بين المسلمين فأطية؛ فغيرهم، ومحدثهم، ومكلمهم، ونطارهم، ومقلدهم أن الطواهر الواردة بذكر الله في السماء، كقوله تعالى: ﴿أأنتم من في السماء﴾ ونحوه، ليس على ظاهرها، بل متأولة عند جميعهم²، أي جميع من يعتد بهم.



¹ الاعتصام 303,2

² 24,5

موقف الأئمة المالكية

سبب ابن تيمية إلى أئمة المالكية القول بالاستواء الحقيقي، أي الجلوس والاستقرار.

حاء في فتاويه: وكلام أئمة المالكية وقدمائهم في الإثبات كثير مشهور، حتى علماءهم حكوا إجماع أهل السنة والجماعة على أن الله بذاته فوق عرشه، وابن أبي زيد إنما ذكر ما ذكره سائر أئمة السلف، ولم يكن من أئمة المالكية من خالف ابن أبي زيد في هذا¹.

التقويم

كلام ابن تيمية ينقسم إلى قسمين :

1. حكاية الإجماع على الحمل الحقيقي في آية «لم استوى على العرش». وقد تقدم القول بعدم صحة هذا الإجماع، ويكفي في رده ما قاله الإمام الحافظ القاسمي عياض -من أئمة المالكية- من أن أكثر محدثي الفقهاء والمتكلمين على إحالة الجهة -أي القول بأن الله في جهة العلو على العرش من الأمور المستحيلة- وأن من صار إلى القول بالجهة هم دهاء الفقهاء والمتحدثين، وبعض متكلمي الأشاعرة، وكافة الكرامية². «من الفرق المنحرفة»

2. سنة القول بالجهة إلى أئمة المالكية.

¹ ص 182 موعود اعتقادي

² أعمال الإكمال على صحيح مسلم 241، 2

وما نسميه إليهم غير صحيح، يقول الإمام الأبي -من أئمة المالكية- في شرحه على صحيح مسلم: ما نسب من القول بالجهة لا يصح، ولم يقع إلا لأبي عمر في الاستكثار والتمهيد، وابن أبي زيد في الرسالة، وهو عنهما متأول¹.

ونكر حفاظ المذهب المالكي وأئمة - كابن عبد السلام، وابن هارون، والمسطي، وابن الصباغ، وغيرهم ما أنكره الأبي².

يقول الإمام شهاب الدين أحمد بن يحيى بن جبريل الكلبي المتوفى سنة 733: ما حكاه ابن تيمية عن أبي عمر بن عبد البر، علم الخصاص والعام مذهب الرجل، ومخالفة الناس له، ونكير المالكية عليه أولاً وآخرأ مشهور، ومخالفته لإمام المغرب أبي الوليد الناجي معروفة، حتى إن فضلاء المغرب يقولون: لم يكن أحد بالمغرب يرى هذه المقالة غيره وغير ابن أبي زيد، غير أن العلماء منهم قد اعتكز عن ابن أبي زيد بما هو موجود في كلام القاضي الأجل أبي محمد عبد الوهاب البغدادي المالكي³.

- وقال الإمام الحافظ ابن العربي -من أئمة المالكية- قد تعدى إليه أي حدوث النزول⁴ قوم ليسوا من أهل العلم بالتفسير، فتعدوا عليه بالقول بالنكير، وقالوا في هذا الحديث دليل على أن الله في السماء على العرش من فوق سبع سموات.

قلنا: هذا جهل عظيم، وإنما قال ينزل إلى السماء⁵ ولم يقل في هذا الحديث من أين ينزل، ولا كيف ينزل.

قالوا: وحجتهم ظاهر قول الله تعالى: «الرحمن على العرش استوى»

قلنا: وما العرش في العربية؟ وما الاستواء؟

قالوا: كما قال الله تعالى: «تستووا على ظهوره»

قلنا: إن الله تعالى أن يمثل استواءه على عرشه باستوائنا على ظهور الركائب.

¹ المرجع السابق والجزء والصحة

² المرجع السابق نفس المكان

³ التوفيق الرباني 192

قال: والذي يجب أن يعتقد في ذلك أن الله كان ولا شيء معه، ثم خلق المخلوقات من العرش إلى الأرض، فلم يتعين بها، ولا حدث له جهة منها، ولا كان له مكان فيها، فإنه لا يحول ولا يزول، قدوس لا يتغير ولا يستحيل¹.

- وقال ابن رشد في كتابه -فصل المقال- ص13: إن هاهنا ظاهر يجب على أهل الترهان تأويله، وحملهم إياه على ظاهره كفر في حقهم، وتأويل غير أهل الترهان له، وإخراجه عن ظاهره كفر في حقهم، ومن هذا الصنف أية الاستواء وحديث النزول .

- وقال الإمام القرطبي في تفسيره: ووصفه بالعلو والعظمة، لا بالامكان والجهات والحدود، لأنها صفات الأجسام، وإنما ترفع الأيدي بالدعاء إلى السماء، لأن السماء مهبط الوحي، ومنزل القطر، ومحل القدس كما جعل الله للكعبة قبلة للدعاء والصلاة، ولأنه خلق الأمكنة وهو غير محتاج إليها، وكان في أوله قبل خلق المكان والزمان ولا مكان له ولا زمان، وهو الآن على ما عليه كان².

- وجاء في كتاب المنهاج القويم لابن حجر الهيتمي ص244: وأعلم أن الغرافي وغيره حكوا عن الشافعي ومالك وأحمد وأبي حنيفة -رضي الله عنهم- القول بكفر القائلين بالجهة والتجسيم³.

- قال ابن ناجي من علماء المالكية: ثبت علم السلف الصالح باستحالة الجهة، والقول بالعوقية الحسية⁴.
ونمثل قوله قال الشيخ زروق⁵.

¹ العارضة 232,2

² نصير القرطبي 216,18

³ الوهابة في شعراء ص9

⁴ ابن ناجي على الرسالة 28,1

⁵ زروق على الرسالة 28-29

- يقول الشيخ الدردير - من حفاظ المذهب المالكي-: وأجاب أئمتنا سلمهم بأن الله تعالى منزّه عن صفات الحوادث، مع تفويض معاني هذه النصوص إليه تعالى، يثراً للطريق الأملم «وما يعلم تأويله إلا الله»¹
- وخلفهم بتعيين محامل صحيحة يعطالاً لمذهب الضالين، وإرشاداً للقاصرين، فحملوا اليد على القدرة، والوجه على الذات، والاستواء على الاستيلاء، وهكذا، قال: والحاصل أنه لا بد من تأويل، أي حمل اللفظ على غير ظاهره¹.
- وقال الجزولي - من أئمة المالكية- في حربه التوحيد: لا يختص بالممكن، سبحانه عظيم. الاختصاص بالممكن من صفات المخلوقات².
- ورد الإمام مالك على القائلين بالجهة مبسوط في العواصم عن القواصم لابن العربي³.
- وصرح العلم العراقي أن الإمام مالكا يقول: إن معتقد الجهة كافر⁴.
- إلى غير هذا من النقولات الكثيرة التي تنفي ما يريد أن يسميه ابن تيمية إلى المذهب المالكي.

ملاحظات:

1. في كلام أئمة المالكية المنتقدين للقول بالجهة التغافل عن الظلمة، لأنه تكلم في غير تخصصه كما سبق بيانه - فقوله وعدمه سواء.
2. قول ابن أبي زيد القيرواني "وأنه فوق عرشه المجد بذاته" لا يمين حملة على الفوقية الحسية إلا بعد التصريح منه بأن المقصود بالفوقية الفوقية الحسية. لما سبق من القول أن الملف يفسرون الملو والعوقية معلقو المعنى، الذي يعبر عن كمال القدرة والتملك لكل الأشياء، كما صرح بذلك ابن جرير الطبري وغيره،

¹ شرح الفريدة مع حاشية الصاوي 68-69

² حرب التوحيد مع الوظائف ثلاث 36 مكتبة المداح

³ مقالات الكورني 291

⁴ تكملة سيف 116

فيصير معنى الجملة عند ابن أبي زيد أن استيلاء الله على العرش وتملكه له كان بذاته ونفسه، ولم يكن عن طريق ملك عظيم أو روح كبير. هذا كله إذا سلمنا بصحة ثبوت العبارة عن الإمام، وإلا فإن الفاكهاني يقول: سمعت شيخنا أبا علي النجاشي يقول: إن هذه العبارة نسبت على المؤلف -رضي الله عنه-¹.

3. قال الشيخ حسن علي السقا في كتابه "إقام الحجر على المتطاول على الأشاعرة من البشر": الحشوية المجسمة أتباع ابن نعيم متى خالف كلام الأئمة الكبار كلامهم واعتقادهم، وأرادوا أن يحتجوا بقول ذلك الإمام ليقتنعوا من حولهم حرقوا وتلاعوا بكلام ذلك الإمام وقد فعلوا في هذه الفترة الأخيرة أشياء وتحريفات. منها أنهم قاموا بطباعة كتاب "الأذكار" للإمام النووي، بإشراف إدارة هيئة البحوث والدعوة والإرشاد، بتحقيق عبدالقادر أرناؤوط، ونشر دار الهدى للرياض، وحرقوا قول الإمام النووي "فصل في زيارة قبر رسول الله" فجعلوه "فصل في زيارة مسجد رسول الله" وحرقوا بعده كلاما يقع في ثلاثة أسطر، يخالف مشربهم. وحرقوا أيضا من آخر ذلك الفصل قصة العتيبي التي ذكرها الإمام النووي، واستحيا أئمة الشافعية، كما قال الإمام النووي في المجموع "274,8" وقد رجعت إلى عدة نسخ مطبوعة، وإلى المخطوط، وإلى شرح العلامة ابن علان علي الأذكار، لأتحقق من ذلك التلاعب، الذي لم يشر إليه المحقق والطابعون، لا في المقدمة ولا في موضع الحذف وليس هذه الأفعال إلا تحريف وتلاعب بكلام الأئمة، وزرع سبور الشك بما في أيدي الناس من كتب علماء الإسلام والأئمة وكتب التراث. قال:

ومن تحريفاتهم أن حرقوا قطعة تامة من كلام الإمام أبي الحسن الأئمة، حين طبعوا كتابه "الآبائة" ينفي فيها أن الله استوى على العرش بذاته. وهذه القطعة هي:

¹ ابن ماجي على الرسالة 28,1

وأن الله تعالى استوى على العرش على الوجه الذى قاله، وبالمعنى الذى أراده، استواء منزها عن المماثلة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال. لا يحمله العرش، بل العرش وحملته محفوظون بعلف قدرته، ومقهورون فى قبضته، وهو فوق العرش، وفوق كل شيء إلى تحوم الثرى، فوقية لا تزيد قربا إلى العرش والسماء، بل هو رفيع الدرجات عن العرش، كما أنه رفيع الدرجات عن الثرى، وهو مع ذلك قريب من كل موجود، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد¹

وهذا -كما قال الشيخ المساقف- كلام محقق على أربع نسخ خطية بتحقيق الدكتور فوقية دار الأضواء ص 21، وهو محذوف من نسخ الإهانة المطبوعة فى الأسواق.

4. أتباع المذهب الظاهرى يسقطون هفوات الأكلام، فيستدلون بقول الإمام القرطبي فى كتابه 'الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى' بأن القرآن نطق بإثبات الجهة²، وينسون قوله فى التفسير إن الله ليس له مكان³، وقوله فى الأذكار حين تعرض لقوله تعالى: (أنتم فى السماء) وقوله عليه السلام لتجارية ((أين الله؟)) قالت: فى السماء: وما كان مثله ليس على ظاهره، بل هو مؤول تأويلات صحيحة، قد أهداها كثير من أهل العلم فى كتبهم⁴.

وقوله أيضا فى الأذكار: متبعوا المتشابه لا يخلو أن يتبعوه وبجمعوه طلبا للتشكيك فى القرآن وإضلال العوام، كما فعلته الزنادقة والقرامطة والطاعون فى القرآن، أو طلبا لاعتقاد ظواهر المتشابه، كما فعلته المجسمة الذين جمعوا ما فى الكتاب والسنة، مما يوهم ظاهره الجسمية، حتى اعتقدوا أن البارى جسم مجسم، وصورة مصورة، وذات وجه، وغير ذلك من يد وعين وجنب وأصبع -تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا- وهذا ما يراه ابن قيمية وأتباعه

¹ إتمام جهر 17-19

² انظر هاشم فتاوى فى أسنى الأكلام ص 25 دراسة فوق أحمد رسولى

³ 216، 18

⁴ الأذكار 24-25

قال القرطبي: أو يتبعوه على جهة إيداء تأويلها أو إيضاح معانيها، كما فعل صبيح حين أكثر على عمر فيه من السؤال.

فهذه أربعة أقسام:

الأول - أي المشككون - لا شك في كفرهم، وأن حكم الله فيهم القتل من غير استتابة.

الثاني - الذين يمتدنون الظاهر - الصحيح القول بتكفيرهم، إذ لا فرق بينهم وبين عباد الأصنام والصور، ويستتابون، فإن تابوا وإلا قتلوا، كما يفعل بمس ارتد¹.

وقوله في الإنكار: وأما ما يمكن حمله على وجوه في اللغة، فمباح في كلام العرب، فيتأول ويعلم تأويله المستقيم، ويزال ما فيه عما عصى أن يتعلق بتأويل غير مستقيم².

وله أقوال أخرى متعددة في تفسيره تؤكد هذا وتدل عليه، أثيرك غالب أقواله ويترك الاستدلال بها، ويؤتى لنص واحد ليس هناك ما يدل عليه شرعا ولا ما يعلم أنه له أو منسوس عليه، لتناقضه الواضح مع أقواله الأخرى الكثيرة المتعددة الموجودة في أكثر من كتاب.

وأخر دعواتي أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم في كل وقت وحين.

وكان آخر التمام عند أذان العصر يوم الثلاثاء 2001/9/4 في بلاد تاحوراء التي هي إحدى صوحي طرابلس الغرب.

محمد الشاذلي

¹ الإنكار 282

² فراجع سابق 286

فهرست المواضيع

الموضوع	الصفحة
مقدمة	1
تمهيد	4
مذاهب العلماء في الآيات المتشابهة	4
التفويض الإجمالي لمذهب ابن تيمية	8
اعتراضات ابن التيم والاجابة عنها	14
التفد النصلي	24
مبحث الصوت	25
عقيدة ابن تيمية	25
نقدنا من حيث التحليل	
التفد الأول	27
التفد الثاني	29
التفد الثالث	30
التفد الرابع	33
التفد الخامس	35
التفد السادس	36
التفد السابع	37
التفد الثامن	42
نقدنا من حيث النص	
النص الأول (وإنما من جانب ...)	43
النص الثاني ((... فينادي بصوت...))	45
النص الثالث (حديث المسلمة)	46
النص الرابع ((يخضر الله العباد فيناديهم بصوت))	47
قاعدة التأويل لضمائر الجمع	49
أمثلة القاعدة	50
تطبيق القاعدة على الموضوع	52

54	شبهة الإسناد في حديث ((أنا الدين، أنا الملك)).....
55	طريقة التعبير الديني عادة الاستعمال حين تمتد الفعل إلى الله.....
60	حديث ((إن ربي عز وجل أتقى الآية)).....
61	حديث ((إن الله خلق آدم على صورته)).....
63	حديث ((إن الله لم يمس شيئا إلا ثلاثة)).....
63	آية «يوم تطوي السماء».....
64	حديث ((يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى...)).....
64	حديث ((إن الله يحمل السموات يوم القيامة على أصبع)).....
65	آية «والله محيط بالكافرين».....
66	آية «وإله ربك».....
66	حديث ((يمثل الله عز وجل ذكره...)).....
68	حديث ((يكشفن ساقه...)).....
69	اعتراض ابن حجر والجواب عنه.....
72	فتاوى الأئمة في الصوت والحرف.....
	مبحث الاستواء
77	عليدة ابن تيمية.....
	التقويم لتحليل النصوص
78	آية الاستواء.....
81	تأويل السلف لها.....
83	المقصود بالعلو.....
85	مقارنة بين تحليل ابن تيمية وتحليل الأشاعرة.....
89	عقيدة السلف في عدم المكان لله.....
92	آية «أنتم من السماء».....
95	حديث ((ينزل ربنا إلى السماء الدنيا)).....
96	حديث ((أين الله)).....
100	أدلة العروج والرفع.....
100	نقد التحليل.....
103	حديث المعراج.....

103	نقد التحليل ..
106	حديث ((لقد حكم اليوم فيهم بحكم الله ... من فوق سبع سموات))
107	قول عمر ((هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات))
108	حديث ((أين كان ربنا))
110	حديث ((ربنا الذي في السماء))
111	حديث ((كم تعيد اليوم من إله...))
111	قول ابن المبارك في السماء السابعة على عرشه
113	أصناف العلماء الذين ينقل عنهم ابن تيمية
113	كذابين
114	قاتلون بالتجسيم
114	قاتلون بالتشبيه
114	غير متخصصين
115	علماء يكررون المجاز
117	علماء لا يعتد بروايتهم
118	علماء مكثوب عليهم
120	علماء لا تدل عباراتهم صراحة
120	علماء لم يحققوا المسألة
121	تأويل السلف للتصريح
126	نسبة الاستواء إلى المالكية
126	نقد هذه النسبة
133	فهرست المواضيع

سُبْحَانَ
وَعِزَّتِهِ

